تقارير كاذبة

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي
عماد جروا

راتـب سـكر

تقارير كاذبة

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

تقارير كاذبة: قصص / راتب سكر. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م.- ١٠٨ ص؛ ٢٠ سم.

١-٨١٣.١٠ س ك ر ت   ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ س ك ر ت
٣- العنوان   ٤- سكر
مكتبة الأسد

إهداء

إلى أمي بسيمة:

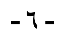
«رأيتها في منام، تناديني بصوتها الحاني، من كوّة بئر عالية،

فأجبتها: لا تقلقي، ستمر قافلة سيّارة، أرافقها إلى مصر...

قالتْ : تعلقْ سريعاً بالحبل، سأشد...

سرعان ما أطلّتْ تباشير الصباح، تزيّن قهوتنا على

منضدة سمراء، ماتزال ترافقنا منذ طفولة بعيدة...».



رحلات البغل الطيب

في منتصف السبعينيات الماضية نشر الأديب عبد الله عبد قصته «البغل»، وعقب صديقنا سمير الناصر الذي كان في تلك الأيام طالباً جامعياً في قسم اللغة الإنكليزية، على القصة بدراسة نقدية طريفة استطاعت أن تكسب المزيد من المتعاطفين مع «البغل» الطيب في معاناته .

تتالت السنوات مغيبة أخبار «البغل» وقصته ونقدها، فقد توفي المؤلف عبد الله عبد، وغطى الغبار من دون وجه حق أوراقه وقصصه. أما سمير الناصر فقد تخرج في الجامعة، وسافر للعمل في صنعاء مهملاً نقد القصص وغيرها. ولما شاءت الأقدار أن أسافر بدوري للعمل في صنعاء، قلت: أهتبلها فرصة وأبحث عن سمير، مكتشفاً في إحياء حواراتي القديمة معه مصير تلك

القصة ورموزها، غير أنني فوجئت بانتقاله للعمل في الرياض مما ضيع عليّ تلك الفرصة المحفوفة برموز الأدب وألغازه. وقد حدثت شاباً أريتيرياً التقيته قرب مكتبة في شارع «هايل» بصنعاء عما دار في مخيلتي، إذ وجدت لديه اهتماماً بالحكايات والقصص، فأخبرني أن «البغل» هرب من قصة عبد الله عبد مباعداً عن عينيه كسل الحبر والأوراق، وعمل في نقل البضائع وتحميلها على السفن التي تمخر عباب الأمواج بين الموانئ المختلفة، وحط به جناحا السفر والترحال في ميناء مدينة صغيرة هادئة، طاب له هواؤها، فطلب الإقامة الدائمة فيها، وراح يبحث عن عمل ثابت يؤمن له العيش الحر الكريم، غير أنه فوجئ بأن أصحاب الأعمال والأمر والنهي يرفضونه رفضاً قطعياً، متذرعين بأن إضبارته - أي ملفه - المنقولة من القرن العشرين إلى أخيه القرن الحادي والعشرين تثير الريبة والشكوك في أمره.

دافع البغل طويلاً عن مطالبه المنسجمة مع قوانين حقوق البغال المتعارف عليها في الأنظمة الدولية، وقال في دفوعاته ومرافعاته إنه لم يرتكب ذنباً في حياته حتى تكون له إضبارة خاصة تنكد عليه سعيه في سبيل رزقه، ولما قيل له بأن ذلك كان نتيجة لطول لسانه وآرائه في القضايا الكبيرة، ضحك «ناهقاً» - أي قائلاً: «ومتى كان لنا نحن معشر البغال رأي يقال في القضايا الكبيرة أو الصغيرة».

بدا لي ما سمعته من الصديق الأريتيري النبيه غريباً جداً، فهرب البغل من قصة أدبية قديمة وارد في عوالم الأدب والحياة، وعمله في الموانئ وارد أيضاً، ووجود إضبارة ترافق قصته ونقدها وارد أيضاً، بل هو ضرورة من الضرورات الحيوية لحيوات البغال وغيرها، أما الغريب في الأمر فهو أن تستمر هذه الإضبارة مقاومة عوادي الزمن حتى تنجح في اختراق حدود القرون والتنقل بين البلدان متابعة خطوات «البغل» الطيب. لذلك قررت إهمال السؤال عنه، والتفرغ للبحث في

فلسفة إضبارته، حتى قادتني الفلسفة إلى شبكات الإنترنت وملاعبها الواسعة، فنقلت الحروف والأرقام باحثاً متأملاً، غير أن صور البغال تشابهت مع صور غيرها من خلق الله. ولما اختلطت علي الصور وألوانها، قررت أن أنسى الموضوع جملة وتفصيلاً، لأبحث عن قصة أخرى تفوق قصة البغل فائدة ومتعة.

ابتسامة امرأة في تلّ الدباغة!

يسير راغب في شوارع المدينة سيراً وقوراً فلا يتلفت يميناً أو يساراً، إلا لضرورة قاهرة. لا يضحك لمهزلة يمرّ بها، ولا يقطب حاجبيه لحادث محزن يصادفه، إنه يمشي ويمشي طويلاً، رأسه مرفوع إلى الأعلى، وعيناه هادئتان توهمان من يرى صاحبهما، بحالة من الكسل ذي علاقة بالتأمل والتفكير والرصانة الأسيرة لدى معظم الناس. أسرّ لواحد من أصحابه ذات مرة ببعض مشاعره فأخبره أنه يكظم أي شعور بالغضب، أو الحزن أو الفرح، ينتابه في الطريق، وأنه لا يفكر أو يتأمل في أثناء مشيه، فقال له ذلك الصاحب مازحاً: «يبدو أنك لا تتأمل ولا تفكر، في أثناء مشيك، ولا في أثناء وقوفك»، وضحك الصاحبان قليلاً ثم مضى كلّ منهما إلى غايته مدركاً فوائد الضحك الكثيرة، للبدن والروح.

تابع راغب طريقه متأثراً بمزاح صاحبه، وما ولده في صدره من رغبة في الابتسام، فابتسم معيراً يمينه التفاتة سريعة لم تدم إلا ثواني معدودات عاد بعدها إلى سيرته الأولى في المشي الهادئ الرصين، غير أن شعوراً جديداً لم يألفه من قبل، هزّ أعماقه هزاً عنيفاً، فصورة المرأة التي بادلته ابتسامته بأحسن منها، جعلت كيانه يضطرب اضطراباً غريباً.

رجع إلى داره يجرّ خطواته مبهظة بأثقال كأنها قيود، وعندما حان ميعاد نومه، راح يتقلب طويلاً على الفراش، حتّى إذا لاحت علامات الفجر، وجدته قد تعلم ألف معنى لكلمة السهاد، التي كان يسمعها في الأغنيات من قبل، فيحار في إيجاد معنى، أو إشارة معنى لتفسيرها، كرر في اليوم التالي عبوره في الشارع الذي صادف فيه المرأة صاحبة الابتسامة الساحرة، فبادلته ابتساماً بابتسام، وراح عبوره في الشارع يتكرر يوماً بعد يوم، وهو يفند للسهاد معاني جديدة، يحولها أسئلة شاردة لا تعرف جواباً يعينها.

لم يكن تبادل الابتسامات بينه وبينها، يستغرق أكثر من ثوان معدودات، فالخوف من مغبة ذلك التبادل، يدفعه دفعاً عنيفاً

عن المكان، فيطير على جناحين من مشاعر غامضة مبهمة إلى داره التي جعلها ملاذاً ينسج في فنائه أوهامه الكثيرة مطرزاً أرديتها بخطوط وألوان عصية على التفسير.

لم يكن حزيناً فيما يكابده، فقد اكتسب من تلك الابتسامة الساحرة معاني ثرية للتعاطف والتحابب والصداقة والألفة، وصرخ ذات مساء بصوت عالٍ وجدتها، وجدتها، إنه العشق**!**، ثم ضحك ضحكاً لطيفاً، مكذباً نفسه، ومؤنبها، لمبالغتها في وصف مشاعره بأوصاف العشق والعاشقين، قانعاً بإشارات بسيطة من إشارات الصداقة والألفة.

عاش طوال الأشهر السابقة فرحاً بما تولده ابتسامة المرأة الساحرة في نفسه من إشارات ومعان، غير مكترث بالأبعاد الاجتماعية المرتبطة بذلك، كان خوفه من اتخاذ أية خطوة جريئة يزيد قناعته بكنز الابتسام، ومن يعرف مغبة اتخاذه أية خطوة جديدة في الاقتراب منها؟ فقد تقابله بالسخط وتعنفه بما يضيع ابتسامتها الساحرة، وقد يلاحظ أهلها الموقف، فيعرضونه للأذى. سيقول لهم إن غرضه شريف وإنه مستعد لكل طلباتهم.

بعد تقليب واسع للفكرة حزم أمره وقرر مكاشفة المرأة وأهلها برغبته في الزواج، فأسرع إلى المكان المعهود، عاثراً بتردده المسكون بالمخاوف، متلعثماً بما يرتبه من عبارات تحدد موعداً للقاء الأهل والأقارب.. وعندما وصل كادت الصدمة تشلّ حراكه، لم يجد المرأة في مكانها، اختفت تماماً وحلّتْ محلها ألبسة نسائية معروضة طولاً وعرضاً. ألحّ بسؤاله عنها، فأجابه أصحاب المحلّ بأنهم باعوها. كادت كلمة «باعوها» تقتل فيه كل ما يملك من قدرة على الفهم والمحاكمة، وعبثاً حاولوا أن يشرحوا له أن تلك المرأة، مجرد لعبة من شمع ملون يعرضون عليها الثياب الجديدة، وقد باعوها لرغبتهم في تغيير مناظر محلهم.

عاد أدراجه إلى داره مفضلاً ذكريات ابتسامتها الساحرة، على تصديق أخبار تجارتهم.

ابنة خالتي الأثيوبية

انقطع عبد الله عن الكتابة في الصحافة منذ أشهر خلت، طلب منه صديق له غدا مديراً لصحيفة المحافظة التي يعيش فيها، أن يكتب مقالة يسوّغ فيها انقطاعه ذاك، غير أن طارئاً قد طرأ، بدّل مسيرة الكلمات على حبال السطور، فوجدته يتابع صور الشاشة الصغيرة منذ مساء الخامس والعشرين من كانون الثاني ٢٠١٠ الجاري، مقلّباً يده الصغيرة بين المحطات المتباعدة مدارياً ماراح يكوي كيانه البسيط من فِكر تحتاج كل منها إلى مؤتمرات دولية وعالمية لتفسيرها ومناقشتها...

ثمّة فتاة أثيوبية تندب بلغة لا يفهمها، علم بإشارات يديها اللتين راحتا تمسكان بشعرها المجعد على الطريقة الإفريقية، أنها فقدت عزيزاً في حادث الطائرة التي تحطمت قبالة شاطئ

بيروت، وعلى متنها تسعون راكباً، بينهم أربعة وخمسون لبنانياً، فراح يهذي بلغة لم يفهمها صحبه الذين يشاركونه همّ مشاهدة التلفاز وأخباره، حتى اضطرت سيدة منهم إلى القول: **(**جنّ الفتى**..** فهو يهذي بالأثيوبي **!)**.

لم يعرف سبب استحضاره صورة السندية العجماء التي ذكرها جماعة من أهل البصرة في خبر وفاة الشاعر بشار بن برد، عندما قالوا في الخبر الذي أورده أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني: **(**أخرجت جنازته، فما تبعها أحد، إلا أمة له سوداء، سندية عجماء ما تفصح**)**.

قالت المذيعة إن الأثيوبية النادبة فقدت ابنة خالتها التي كانت تعمل معها في لبنان، فزادت العبارة من قسوة تفاعله مع الخبر، هو الذي ظل يكتب في دفاتره سنوات طويلة،عن مكانة الخالات في حيوات البشر، ووجدته يدخل في حوارات مخنوقة الكلمات عن الخالات وأولادهن، وضحايا حوادث الطائرات، وضحايا الحروب، **-** فكر لحظة، ثم تساءل عن دلالة

الحروب في هذا المقام- وعن لبنان الأخضر العظيم، الذي ينهض في كل مرّة من موت يحاصره، في البر أو البحر أو الجو، ليرتل مع سيدته العظيمة فيروز للحب والحياة، كأنه طائر الفينيق..

رافق صوت المذيعة صور شاطئ خلدة، إلى الجنوب من بيروت، متداخلاً مع أصوات المتحاورين من مسؤولين وركاب تخلوا عن رغباتهم في السفر قبل إقلاع الطائرة بقليل، ومن بشر افترشوا أرض المطار يسألون عن مصائر أولادهم أو أقربائهم، الذين صعدوا سلّم الطائرة على أمل اللقاء بعد حين، من دون أن يعلموا شيئاً عن هذه الساعة التي هي الآن حاضرة بدموعها وحيرتها ولوبانها بحثاً عن الأمل والرجاء..

قالت المذيعة إن الأثيوبية النادبة فقدت ابنة خالتها.. وتداخلت الأصوات حتى شعر عبد الله بثقل الدنيا على رأسه الصغير، وكان حتى هذه الساعة يصرخ يا أمي إذا دهمته واقعة،

فوجدته يحادث رفاق السهرة عن موقع الخالة من الأم، وموقعيهما من الأبناء، فيهدأ قليلاً، متذكراً أن لبنان الأخضر العظيم، ينهض في كل مرّة من موت يحاصره، في البر أو البحر أو الجو، ليرتل مع سيدته العظيمة فيروز للحب والحياة، كأنه طائر الفينيق.

أقوى من الفولاذ!

يبدو أن المقولة التي تجعل لكل مجتهد من اسمه نصيب لم تأتِ من فراغ فكري أو اجتماعي. وما يدفع المرء إلى هذا الرأي هو الاطلاع على قصة السيد «رابح».

في مرحلة الطفولة كان يلعب مع أقرانه لعبة الشرطة والحرامية، فيعترف له الأقران اللاعبون بحقه في دور الشرطي، على الرغم من إحساسهم بوجود بذور لنزعات الأثرة والشر في تصرفاته.

في مرحلة الدراسة الجامعية توقف أساتذته غير مرة، في مناقشة حلقات بحوثه، مشيرين إلى ما يعتورها من منهج تلفيقي، يغطي بالعنوانات الكبيرة ركوده في تحليل الظواهر التي يبحثها، ويظل خارج أسوارها، عاجزاً عن سبر مكنوناتها، وتفهم ما تمور به من حركة، وتسويغ غاياتها ودلالاتها. يذكّره

صـديقه عبـد الله بكـل ذلـك مـن حـين إلى حـين، فيبـدي عـدم اكـتراث، متغـافلاً تـارة، ومتظـاهراً بالنـسيان تـارة أخـرى، فيضحك الصديقان مقتنعين أن الحديث عـن حلقـات البحث الجامعيـة، تتـضاءل أهميتـه مـع التقـدم عـلى مـدارج العمـر، ومواجهة قضايا الحيـاة، بـدروبها الواسـعة وعنواناتهـا الكبـيرة. وقد ازدادت قناعتهما بذلك بعد أن أصبح «رابح» رئيس مجلس الإدارة في الـشركة التي يعمـلان فيهـا، فلـم يعـد عبـد الله يـذكر صاحبه بشيء، وغدا كل همّه أن يسلم بريـشه، ناجيـاً بـما بقـي في نبض قلبه من إحساس بالجمال والشعر والبراءة الإنـسانية، بعـد جلـسات الاسـتماع الطويلـة التـي يخصـصها مجلـس الإدارة للحديث عن الإرادة الفولاذية في معالجة الإنتاج، والضرب بيد من حديد على رأس كل من تسوّل له نفسه عرقلة تلك الإرادة، وهي تسير إلى غاياتها سيراً حثيثاً لا يعطلهـا عنـه سـوى تأملهـا بطبيعتها الفولاذية من حـين إلى حـين. لم يكـن في رأس عبـد الله أية صورة عـن الفـولاذ أو الحديـد، وكـان يـضطرب قلـيلاً عنـد سماعه باسم أي معدن، ولو كـان «التنـك» المـسكين، وقـد حـار

طـويلاً في تفـسير حـالات اضـطرابه تلـك مـن دون جـدوى، وظلت الأخبار التي قصّتها عليه أمـه ذات يـوم تؤرقـه، وهـي تحدثه عـن جـراح قديمـة في صـدره، سـببها وقوعـه طفـلاً عـلى كومة من المعادن المهملة «الخردة» قرب دارهم.

كـان عبـد الله يحـب صـور الأشـجار العاليـة، طـارداً بظلالها الوارفة، كل ما يعكر صفو أحلامه من صور جارحة بمعادنها.

لغة «رابح» المسكونة بالأمثال الفولاذية والحديدية، تهش قلـيلاً عندما يحاور زوجته أو إحدى بناتـه الـثلاث عـلى الهـاتف، وبـات معظم العاملين معه يدركون أن نقطة ضـعفه في علاقاتـه الأسريـة، لذلك شاع بينهم أن بدء الحديث معه بالسؤال عن أحـوال الأسرة والبيت يحل شيئاً من عقد حاجبيه، اللذين صـارا يـشبهان كـومتين فولاذيتين - مع تتالي الأيام -، غير أن الذي لم يخطر ببال أحـد هـو وصول تعلّقه بأسرته إلى مستويات تجعله يغـير سـاعات الـدوام في الشركة بما يناسب دوام طفلته الصغرى في روضتها، لأن تعلّقه بها فرض عليه إيصالها ذهاباً، ومرافقتها إياباً، فلمعـت في رأسـه فكـرة فولاذية تحدد دوام الجميع بما يناسب انشغاله بطفلته المدللة.

فرح عبد الله بهذه العلاقة المميزة بين صاحبه وطفلته معوّلاً عليها التأثير فيه، ومنحه شيئاً من حاجته إلى طفولة مضيعة، لأنه يؤمن بحاجة الإنسان إلى نبض الطفولة في نفسه مهما تقدمت به سنوات العمر، وعلت به مراتب الوظائف على درجات سلالمها.

امتلأت نفس عبد الله حبوراً عندما بدأ يلمس ثمار النجاح في رهانه ملاحظاً اختفاء الفولاذ والحديد من أمثلة صاحبه، واتساع دائرة الابتسامة على شفتيه.

تتالت الرهانات ونما الفرح بثمارها، دافعاً كآبات الخيبات إلى عتمات بعيدة، فتضاحكت صور الحياة النابضة بموداتها بين ظلال الأشجار العالية، وهي تمنح محبيها ما تحتاج إليه صدورهم من سكينة وطمأنينة.

أفارقة وآسيويون وأوربيون!

أعلنت إحدى الشركات التجارية الكبرى عن مسابقة لتعيين عمال وموظفين، في فرعها الذي أسسته حديثاً في دولة من دول شرق أفريقية. نجح السيدان وحيد وفريد في المسابقة المذكورة، وتقدما بالأوراق المطلوبة ليحصلا على تذكرتي السفر في الوقت المحدد، وكلّ منهما يدخل في حواره مع الآخر بضع كلمات إنكليزية ملونة بلكنة الحارة التي ولدا فيها وترعرعا حتّى وصلا إلى نهايات العقد الثالث من العمر، حاملين غير قليل من السمات المشتركة التي تطبعها البيئة في أبنائها عادة.

تساءلت أم وحيد عن علاقة اللغة الإنكليزية بالدولة الإفريقية السمراء، التي سيسافر إليها ولدها، فأجابها إجابة مشوشة، تعبّر عن جهله التام بالموضوع، فهو مجرد موظف بسيط، اضطر إلى اتباع دورة اللغة للنجاح في المسابقة، والحصول على وظيفة.

تأففت أم فريد عندما علمت أن ابن جارتها مسافر مع ولدها، وحذرته من تعميق الصحبة معه، صحيح أن العائلتين تعيشان متجاورتين في حارة واحدة، ولكن الفرق كبير، فأبو فريد يعود بنسبه إلى أسرة عريقة، كانت في يوم من الأيام تملك ورشة لصناعة الطرابيش، وسقى الله تلك الأيام التي تغيرت.

ترتفع الأبنية الحديثة مزدانة بحجرها المنحوت، وشرفاتها الملونة وأصص الورد، والناس يتشاغلون بتفاصيل أيامهم، المتراكضة، بأخبارها ورتابتها.

إنهم لا يعيرون بالاً، لتغير الوجود من حولهم، فكأن نزعة محافظة عريقة تسكن صدر كل منهم، فيدور حول ذاته، مكذباً دلالات ما يمور في ربوع الحياة من حركة وتغير ودورة فصول.

كان أبو وحيد يسمع عن مواقف جاره، فلا يقصر بدوره في تحليل ماضيه وحاضره ومستقبله، مما يجعل السلام العابر في الشارع بينهما فاتراً، تغيم دلالاته.

كـان الـرجلان وعائلتاهمـا، صـورة اجتماعيـة، تـشبه صـور الرجال والعائلات في حارتهما، التي يتسابق هـذا أو ذاك مـن أبنائها عادة إلى الادعاء بأنه ممثلهـا الـشرعي الوحيـد. ويبـدو أن كلمة (الوحيد) ذات إيحاء خاص لدى أولئك الأبناء، احتفلـت به أسماؤهـم تتلون بدلالاته.

صعد الشابان الموظفان الجديدان، سـلم الطـائرة، في الوقـت المحدد للسفر، وكـل منهما يتـذكر أقـوال أمـه وأبيـه في ضرورة المحافظة على مسافة واسعة تفصله عن رفيق السفر، بينـما يـشعر وسـط تـدافع المـسافرين إلى بـاب الطـائرة الـضيق، أن الواقـع لا يحتمل المسافات الواسعة.

أصبح لوحيد وفريد، في ذلك البلد البعيد، مجموعات كثيرة من الأصدقاء والمعـارف، أفارقـة، وآسـيويين، وأوربيـين، وراح كل منهما يشرح أخبار الحارة التي قدم منهـا، مؤكـداً أن جـدارة عائلته تختلف عن جدارة عائلة صاحبه، وسـارداً قصـصاً كثـيرة تبين علو كعب عائلته في الفضل.

مرت فترة الاختبار الوظيفي، وحان موعد توقيع العقود، فاستدعى المدير المسؤول ذينك الموظفين البسيطين، مرتبا معهما شؤون الوظيفة، وطالباً منهما التخفيف من مظاهر الفخر والمفاخرة في أحاديثهما داخل الشركة، لأنها شركة تجارية مادية التكوين والهوى لا تحبذ الضياع في المفاخرات المجانية، فوافق كل منهما على طلب المدير، راجياً من الله أن تكون فكرة **(التجارة المادية)** قابلة للتلوين، بما يساعده على القول: إن رأسمالية عائلتي تختلف عن رأسمالية عائلة صاحبي.

مرت سنوات طويلة على وجودهما في ديار الغربة، قربتهما من أصدقاء، أفارقة وآسيويين وأوربيين، ولكنها عجزت عن إلغاء المسافات الواسعة، بين بيوت حارتهما الضيقة.

ألفة الأسماء والأشجار

لا يعرف سعيد كيف بدأ البشر يكتبون أسماءهم، وأسماء من يحبونهم على جذوع الأشجار.

عندما كان في مرحلة الدراسة الثانوية، سمع مدرس اللغة الفرنسية يتحدث عن رحلة الشاعر الفرنسي **(لامارتين)** **(١٧٩٠ - ١٨٦٩)** إلى الشرق، وكتابته اسمه على جذع شجرة في غابات أرز لبنان.

كان المدرس يرسم بإشارات يديه معاني كثيرة للشعر والشجر والأسماء، ومن الراجح أنّ تلك الإشارات ظلّت تولد في نفس سعيد ووجدانه، آفاقاً لا حدود لها، من التبصر في علاقة الإنسان بجذوع الأشجار.

تساءل مرّة عن الحطابين، الذين يقطعون بفؤوسهم الحادة جذوع الأشجار وأغصانها، وأراد أن يعرف شيئاً عن مصير

الأسماء التي يكتبها الناس على جذوع الأشجار قبل أن يجعلها الحطابون طعاماً للنار.

يشارك سعيد في رحلات كثيرة تعرّج به مع أقرانه إلى الأحراج والغابات الخضراء، فيمارس لعبته، التي غدت أثيرة لدى قلبه من أيام الدراسة البعيدة، حافراً على جذوع الأشجار اسمه الذي غدا يقترن باسم رفيقة دربه منذ لقائهما وتعاهدهما على الألفة والمودة والحب منذ سنوات. لقد فتح اقتران الاسمين أمام خياله آفاقاً جديدة، فصار لا يكتفي برسم حروفهما على جذوع الأشجار، فيندفع يخطها على التراب الندي تحت الظلال، وفي الرمل والورق وكل ما تطاله يداه، وهما تشعران بغبطة باذخة في رسمهما لحروف الاسمين متجاورين.

قصّ سعيد على صاحب من أصحابه حكايته مع الحروف والأسماء، فخالفه الرأي فيما يذهب إليه، لأن الأشجار تصير حطباً، والرمال تصير ملعباً للريح، والتراب يصير

أخدوداً لزرع وعبور أقدام، فلا يبقى من الحروف والأسماء أثر حقيقي.

اختلف سعيد مع صاحبه، وعلا صياحهما، وكاد يودي بتلك الصداقة الحميمة الراقية بينهما، لولا تدخّل صاحب ثالث لهما، هدّأ من روعهما، مؤكداً أن النار لا تستطيع أن تأكل الشجر بعد أن يصبح غرساً طيباً في الذاكرة، وأن الريح تعجز عن تحويل الرمال إلى ملاعب لجنونها ما دامت الذاكرة قد احتفظت بما خطّ فيها من حروف الأسماء في يوم من الأيام.

الناس والأشجار والرمال، خطوط متداخلة من الصور والمعاني، يبحث كلٌ منها عن طريقة تفسره، ليكون معناه واضحاً وراسخاً. ليس المهم أن تكون الشجرة التي خطّ عليها لامارتين اسمه، باقية حتّى هذه الساعة من هذا الصباح الريان بالمطر والمواعيد، فالمهم أن صورة ذلك الشاعر الفرنسي الرقيق وقصائده ويديه اللتين تخطان حروف اسمه على شجرة باسقة

في شرقنا العربي الجميل، ما تزال أليفة في صباحاتنا المسكونة بالأمل والألفة والحب.

تقطع فؤوس الحطابين قامات الأشجار الباسقة، فتعرى تلال وغابات، مرتلة أحزان شعورها بفقد خضرتها، ترتيلاً شجياً، يثير حماسة الزارعين، فيحثون خطاهم يزرعون شجيراتهم المسكونة بأغاريد المستقبل الأخضر، في المسافة الممتدة بين فؤوس الحطابين وأغاريد الزارعين، يكتب الناس أسماءهم الريانة بالأشواق، على الجذوع، فتبقى حروفها ندية بموداتها، ولو غدت حواملها حطباً يابساً، تضحك به النار.

إنهما سيّان....

يعيش سعيد في حارة السعادة منذ ثلاثين عاماً، فقد حَمله أبوه إليها طفلاً، عندما اختارها مسكناً له، بعد انتقاله في سلم الوظيفة البسيطة إلى مكان قريب.

سرعان ما اندمجت زوجه في العلاقات الاجتماعية للحارة، فعينت يوم الخميس الأول من كلّ شهر موعداً لاستقبالها سيدات الحي اللواتي رغّبنها في تغيير اسم طفلها، فأصبح تحت إلحاحهن المستمر /سعيداً/ بعد أن كانَ /صابراً/.. مرّت السنون سراعاً، كبر على ضفافها سعيد، واختار يوماً من أيام الشهر موعداً مخصصاً لاستقباله أقرانه من أبناء الحارة، شأنه في ذلك شأن أمه وأبيه ولطالما فكّر في دمج تلك المواعيد الشهرية الثلاثة بموعد واحد يضمن له فرصة اللقاء، بابنة صديقة لأمه يرغب في خطوبتها، ويشتت

رغبتـه سـوء حالـه وتعثـره في تـأمين اللـوازم المطلوبـة لبنـاء أسرة جديدة.

فاجأه أبواه ذات صباح يفكر في دلالـة اسمه، فعلم منهما قصة اسمه القديم، وراقت له فكرة العودة إليه، وراح يـردد في مجالسه الخاصة والعامة أفكار تشبه أفكار الفلسفة، عن الأصل، وضرورة استبداله بالعارض.

بدا غامضاً، مشوش الرؤى في مجالس تكاد تقتصر على تبادل عبـارات المجاملـة، والأحاديـث العـابرة عـن حالـة الطقـس وتبدلاتـه بـين الأمـس واليـوم والغـد. ولمـا اصـطدمت فكـرة عودته إلى اسمه القـديم بمعارضـة شـديدة مـن الأقربـاء وأهـل الحـارة، أذعـن للأمـر الواقـع، وراح يخلطـه بعبـارة الفيلـسوف الفرنسي /ديكـارت/ فيقـول مـن حـين إلى حـين: «أنـا سـعيد.. إذاً أنا موجود».

نمـت لديـه عـادة التقـصي عـن الحقـائق الـصغيرة، ولـشدّ مـا أذهلـه أن عـدداً غـير قليـل مـن سـكان الحـارة قـد

قطنوهـــا في أوقـــات متنوعـــة لا توغـــل في قـــدمها بعيـــداً.
اشترى دفتراً سميكاً وسجّل أسماءهم واحداً واحداً، وألح في السؤال عنهم، والاستفسار عن نزوحات أسرهم بين محطات الزمن، وراح يجهر بمعلوماته المكتنزة في دفتره كلما لمس عنجهية نحو قاطن جديد دعته صروف الدّهر للإقامة في الحارة.

قوبلت تصرفاته باشمئزاز الآخرين وسخريتهم، وراح يخسر أصدقاءه واحداً بعد آخر، حتّى غدا وحيداً مهملاً يجيب والداه طلباته الراغبة في استبدال اسمه القديم باسمه الجديد، قائلين: «إنهما سيّان».

ازداد تعلقه بالحوار بعد حضوره ندوات ثقافية أقامها اتحاد الكتّاب العرب واصطحبه إليها أحد الأعضاء المشاركين، وراقت له ثلاثية اللفظة والدلالة والواقع، وعندما راح يفسرها لأقرانه في الحارة علت قهقهاتهم رافعين درجات غربته وحزنه.

حاول أن يشرح مراده، فقال إن الإنسان الذي ينطق كلمة النار لا يحرق شفتيه، والذي ينطق كلمة الحروب لا يصمّ أذنيه بدويّ مدافعها، واستنتج من النار والحروب أنّ الأسماء والألفاظ تبقى حيادية إذا لم يسيّر الإنسان في مواكبها جوقات الدلالات المناسبة.

أصبحت مقولاته الجديدة حديثاً معاداً مكروراً بين يدي الأيام، وكلما حاوره أبواه في المسائل التي تشغله، خلصا من جديد إلى موقفه من اسميه القديم والجديد، وقالا له بقليل من الحزم وكثير من الودّ: «يا بنيّ إنهما سيّان».

أهــل ودّ

نظـر الموظـف إلى جـدران مكتبـه فـتراءت عـلى مـساحاتها أشــكال هندســية منوعــة، ســمحت لأوهامــه بالاســتناد والقفز والتحليق.

نـسي قلـيلاً موضـوع الراتـب والمـصروف، فتملكـه شـعور بالزهو والاعتزاز، أطلّ من شرفاته مخاطباً مراجعيه، ملوحاً بيـد آمـرة ناهيـة، لا يحـدّ مـن غلـواء حركتهـا سـوى هـاتف المـدير وأوامره من حين إلى حين، ولولاهـا لاسـتبدّ بـه الغـرور وتـاه في الأرض يمشي في خيلاء غير مكترث بمشاعر الآخرين.

استاء أحـد المـراجعين مـن طريقـة هـذا الموظـف في الكـلام وتصرفاته في العمل، فقرر رفـع الـشكوى إلى الإدارة المـسؤولة، وبعـد أخـذ وردّ وصــلت شـكواه إلى مجلـس الإدارة المعنيــة، فأدرجت في جدول مداولاته وأعماله.

علم الموظف بما حصل، لكنه لم يكترث أبداً، فقد اعتاد منذ سنوات طويلة على سماع مثل هذه الأخبار، وكلما ارتفعت حدّة الشكاوى ضده كانت مواقعه الوظيفية تتوطد أركاناً، حتّى شاع بين عارفيه أنه ذو نفوذ واسع واتصالات خفية عميقة، وكاد الجميع يصدقون مثل هذه الشائعة، على الرغم من معرفتهم اليقينية ببساطة تكوينه الشخصي والاجتماعي.

يختلف المراجعون في أمور كثيرة، منها طبيعة صلتهم بالدائرة والموظف، فبينما يمرّ قسم منهم مروراً عابراً في مرحلة زمنية محددة، يستمرّ القسم الآخر في علاقات متشابكة تدوم سنوات وسنوات، يصبحون في أثنائها شركاء الموظفين في عملهم المهني، يتداخلون معهم في علاقات متنوعة، تستخدم مفردات لغوية ذات دلالات اجتماعية وإنسانية عميقة مثل الزميل والصديق وما شابه من الألفاظ التي تغطي بأرديتها الوجدانية المنسوجة على أنوال الزمن حدود الموظف والمراجع.. وفي شبكة علاقات كهذه،

تخجـل الـشكوى ويـصبر التـذمر فيـزداد الموظـف تيهـاً أحياناً، ويتجاوز المراجع الحدّ المسموح به أحياناً أخرى. ولما يتذكر كلّ منهما فعلته، يشعر بالأسف قليلاً، ويقرر تجاوز المأزق المفـروض بكلـمات طيبـة يتجنـب بهـا المزيـد مـن التـوتر في الحوار والمناقشة.

يبدو الموظف مغلوباً على أمره ضعيفاً وسط أكوام الأوراق والمـداخلات، وصـاحب الحاجـة لا يملـك الوقـت الكـافي لالتماس الأعذار، يبحث كـلّ منهما على طريقته الخاصة، علّه يجد لغـة مشتركة للتفـاهم المفقـود، يطـول البحـث ولا يمـلّ الباحثان، لأن انتظار الوقت يبقى مفضلاً على العتاب.

يـشعر الموظـف أن المراجـع مجـرد ضـيف في مكتبـه ودائرته، فيرغب في بيان لوائح الحقـوق والواجبات باستمرار محـدداً لـضيفه الحـدود المـسموح بهـا. ويـشعر المراجـع أنّ الموظـف ودائرتـه جـزء مـن نـسيج كيانـه الـوطني والقـومي، فـيلحّ عـلى إلغـاء المـسافات والفـوارق أمـام تقـدم الـصالح

العـام ونهـضته، إنهـا مـشاعر كثـيرة لا يمكـن حـصرها، تقفـز إلى سـاحات الكـلام محتجـة بحماسـة عـلى مـشاهد يوميـة هنـا أو هناك.

عندما يغادر كلّ منا منزله في الصباح، يقصد عمله في الحقـل أو في المدرسة أو في المصنع أو في الجريـدة. في دائـرة المواصـلات أو في المركز الثقافي، في شركة ريما أو في الجامعة.. يمسح النسيم جبهته العريضة وينعش منكبيه فيحثّ الخطى على دروب يومـه الجديـد مـتفهماً أنّ الـذين سـيقابلهم في سـاعات نهـاره يحبـون الوطن مثله، ويعملون بإخلاص في سبيل نهضته وعزته، فعليـه أن يعاملهم بكثير من الودّ.

بين البلطات و«ثمرات الأوراق»

كان عبد الله يكتب مقالة عن كتاب «ثمرات الأوراق» الذي ألفه ابن حجة الحموي في القرن التاسع الهجري عندما استوقفته مجموعة من الأسئلة المتعلقة بسفر ذلك الكاتب اللامع من مدينته حماة إلى مصر حيث أقام ردحاً من الدهر موظفاً مرموقاً.

قادته فكرة السفر إلى استدعاء ما يحفظه من أخبار عن أسفار الأدباء والمثقفين فاكتشف حضوراً طاغياً للسفر في حيواتهم، راح يوازن ألوانه وآفاقه متذكراً رحلات أبي تمام الطائي، وأبي الطيب المتنبي إلى مصر والعراق وفارس، وسفر أبي العلاء المعري إلى بغداد على الرغم مما سببه له ضعفه وكفّ بصره من شجون في الطريق نهراً وبراً.

قطـع تــداخل الــصور والألــوان في موازناتــه الأدبيــة صـارخاً: «وجـدتها وجـدتها»، فـسمع صرختـه جـاره القريـب الــذي أسرع إليــه ظانــاً أنــه وجــد القطعــة الذهبيــة الثمينــة التي أضـاعها قبـل أيـام في زيارتـه لـه، ولما وجـده يحـرك يديـه حاسـباً عـلى أصـابعه صـوره وألوانهـا خَمّنـه يحـضر دوراً تمثيليـاً في مــسرحية «أرخميــدس اليونــاني في الحــمام»، وبعــد حــوار سريع عن الذهب والمسرح، أدرك الجـار أن مـا وجـده عبـد الله مجرد فكرة تربط الإبداع الأدبي بالسفر مؤكدة أن وراء كل أدب عظيم سفراً.

بعــد القناعــة بالعلاقــة بــين الــسفر والإبــداع الأدبي، قــرر الصديقان المتجاوران ترتيب أسفار تنمي مـوهبتيهما الأدبيتـين، غـير أن مـا يعرفانـه مـن أخبـار مكابـدة الـسفر ومـشاقه في سـير أعلام الأدب جعلهما يترددان قليلاً متوقفين عند مصرع المتنبـي في طريق عودته من فارس بصراعه مع جماعة من قطاع الطـرق. وعند متاعب المعري في سـفره بـسفينة نهريـة سـطا عليهـا قطـاع

الطرق. ولما كان الجار مولعاً بالدراسات اللغوية وجدته يفند معاني العبارة، مسمياً هذا النوع من البشر الذي يعتدي على الأدباء وغيرهم «البلطجي» شارحاً دلالة التسمية، وعلاقتها بالبلطة، وهي ضرب من الفؤوس قال صاحب «المنجد» إن «البلطجي» كان يستخدمها وهو يسير مع العسكر لأجل تسهيل الطريق بقطع الأشجار، وإقامة الحصون. ويبدو أن التسمية وُظِّفت لدى بعضهم للدلالة على الإنسان السيئ الذي يعتدي على غيره، كما وُظِّفت تسمية «الفتوة» التي تعني في المعجم السخاء والكرم والمروءة، لدى بعضهم للدلالة على من يتسلط على غيره معتدياً.

سيطر على حوار الصديقين فضاء من القلق والخوف بعثه استرسال الجار المولع باللغة وشروحها في إيراد الكلمات المترادفة في توصيف ذلك النوع من البشر الذي اعتدى على المتنبي والمعري وآذاهما كما آذى غيرهما من أعلام الأدب والثقافة على مدارج التاريخ.

شعر الصديقان أن حوارهما يقودهما إلى طرق مزروعة بعطافات من الخذلان والعدوان والاكتئاب فقررا تأجيل تفكيرهما في الأدب واللغة وشجونهما، وانطلقا بين الأشجار العالية تظلهما بظلالها الوارفة، وتنسيهما معاني البلطات و«ثمرات الأوراق» ولو إلى حين.

تقارير كاذبة

انتشر أدب الخيال العلمي ونقده انتشاراً واسعاً، في السنوات الماضية، مماهياً الظروف الملائمة في المجتمع، لتصديق ما حدث، ومتابعة مؤثراته في حياة الناس وتصرفاتهم اليومية.

ظنّ المراقبون في البداية أنّ الرجل والمرأة اللذين ظهرا يتحاوران بلغة عربية فصيحة، في شوارع المدينة، يؤديان دورين في مسرحية أحمد شوقي الشهيرة: «مجنون ليلى»، ولما طال حوارهما، ولبس لبوس الشجار المحفوف بمواكب الصراخ وتبادل الشتائم والاتهامات، تدخل بعض المعنيين بالمؤسسات الثقافية والاجتماعية، يعاونهم غير قليل من الفضوليين وعابري السبيل، وشكلوا ما يشبه هيئات الحكم في القبائل القديمة، لتفهم أحوال الرجل والمرأة وفك رموز حوارهما وإشاراته الغامضة.

رضيا برفع قضيتهما إلى هيئات ثقافية واجتماعية تخولها القوانين والأنظمة البت في القضايا المهمة والكبيرة، نظراً لغرابة أحوالهما، وما يكتنفها من تداخلات شخصية وعلمية وثقافية. فقد ادعى الرجل بأنه قيس بن الملوح العامري، وادعت المرأة بأنها ليلى العامرية المحبوبة التي جُنَّ بها الشاعر وهام على وجهه في الصحراء.

بعد أخذ وردّ، وسؤال وجواب، وضحا أنهما شربا منقوع أعشاب ملونة، فناما نومة أهل الكهف، حتّى إذا استيقظا من نومهما الطويل، فوجئا بهذا العالم الصاخب من الفوضى المزركشة المزدانة بشرائط حمراء وخضراء وصفراء، تتدلى من شرفات الأبنية العالية حاملة عبارات غريبة، مثل: «٢٠٠٦ - عام جديد مبارك».

شغلا عن مفاجأتهما بما يريان ويسمعان، بقضية أساسية واحدة، محورها صفة «المجنون» التي وصفته بها، ودفاعه عن نفسه بأنه عاقل جداً، يعرف أنّ الوشاة والخصوم اتهموه بالجنون، كي يشوهوا صورته في عيني ليلى.

بعد أيام من الحوار، والعتاب، وتبادل الأحاديث مع أعضاء اللجان والأصدقاء الجدد، تسربت إلى لغة كلّ منهما مفردات وعبارات جديدة لم يألفاها من قبل، راحا يصغيان إليها غاضبين تارة، وهازئين ضاحكين تارة أخرى.. وعندما أصرت على موقفها تتهمه بالجنون، انتفض غاضباً صارخاً بوجهها: «تقارير كاذبة، كل ما وصلك من أخبار عن جنوني، تقارير كاذبة من تدبير الوشاة والخصوم». قهقهت بضحكة عالية، مبدلة بالحوار الدائر صاخباً، دعابة هادئة تتحرى معنى كلمة «تقارير» ودلالاتها، فالكذب والوشاة والخصوم وما شابه أمر معروف مألوف فيما تعرفه من مفردات وعبارات لغوية، أما التقارير فمفردة جديدة، أثارت في نفسها شعوراً عارماً بالضحك العالي، لم تعرف له سبباً.

طال الحوار، وتشعب في شعابه، متحملاً تدخل المتدخلين، من دون فلاح أحد منهم في إقناع ليلى بتغيير موقفها. كان ذكر جنون قيس، يرضي غرور جمالها وأنوثتها، ويطمئن خفقات قلبها المستيقظ بعد نوم طويل. وفي المقابل كان قيس يتألم خائفاً،

فقد أدرك أنّ مواقف أصحاب هـذه الأيـام مـن الجنـون وأهلـه، لا تسرّ صديقاً، وقد لا تسمح له بالهيام في البراري، فثمة محاجر معاصرة، وثمة فنون تقييد لم تكن تخطر في بال.

في جـوٍ محمـومٍ بالـصراخ، وتبـادل الاتهامـات، بلغـةٍ تـئنّ بـما غزاها من مفردات جديدة، شعرا أنّ الودّ هان عليهما، وشـاهدا الناس يتزاحمون أمام محلات بيـع الـورود، فعلـما أنهـم يحضرون واقـع الحـال للاحتفـال بعيـد الحـبّ، وكـلّ مـنهم يجعـل اسـمي «قـيس ولـيلى» علامـة للحـبّ الـصافي، وأمـارة للعيـد القـادم. سـادهما تنـاقض الأحـوال، فقـررا تأجيـل خلافـاتهما، وطيّهـا في رماد الكـلام، علّهـما يحظيـان بجمـرة ينظفـان بنارهـا مـا اعـترى مفرداتهما اللغوية من رتابة وخمول، ولو إلى حين.

حوار حزين

أطرق سعيد رأسه يفكر حزيناً، بدا منظره لأصدقائه مثيراً للتعاطف.

قال واحد منهم: «أشركنا في حزنك، ربما نخفف عنك قليلاً». قال آخر: «كل ما في الحياة يثير الحزن، لا أعتقد أن ما يحزن قلب صاحبنا بعيد عن قلوبنا».

بعد نقاش طويل اتفق الأصدقاء على التجمل في حياة ترن أصداء أحزانها من كل جانب. وفي غمرة حوارهم برزت فكرة عدها الجميع جديرة بالاهتمام، تتعلق بترتيب أهمية القضايا التي تقلق كلاً منهم، فاكتشف المتحاورون أن تلك القضايا كثيرة جداً وتحتاج إلى دفتر كبير لتسجيلها، ومن أهم تلك القضايا برزت قضية الأولاد وتربيتهم وتعليمهم وتوفير المستقبل الجيد لكل منهم.

تبارى المتحاورون في تفصيل السبل المناسبة لبناء شقة سكنية لكل ولد، ومصلحة تجارية تدر عليه الأرباح، لاحظ خالد أن همَّ تعليم الأولاد لا يأخذ حصته من الحوار، فكأن الشقة السكنية والتجارة والأرباح والمصالح أهم من كل ثقافة وتعليم، وقد دفعته هذه الملاحظة الوجيهة إلى رفع صوته لتذكير الأصدقاء بأن همَّ الثقافة والتعليم من أهم الهموم في إعداد الأبناء لمواجهة الحياة، لأنه مرتبط بالبناء الداخلي للإنسان.

تعددت الآراء وتنوعت المواقف غير أن الغلبة كانت لأصحاب الاتجاه الذي يرى أن البحث عن أقرب عمل مدرّ للأرباح المادية أفضل من التعليم والثقافة وشجونهما.

انتهى لقاء الأصدقاء وعاد كل منهم أدراجه إلى منزله، ليجد الأسرة مشغولة بالامتحانات الإعدادية والثانوية والجامعية، بحسب عمر كل ابن من أبنائها، ولما بدا موضوع الامتحانات متصلاً بنتائجها وعلاماتها، وما تخوله من صلات مستقبلية

باختيار الاختصاص العلمي المناسب، وجدت تأثير حوار الأصدقاء حاضراً مؤثراً في حديث كل منهم مع أسرته مما جعل النزوع إلى المصالح المادية يطغى على الاهتمامات الثقافية الجوهرية التي تتنحى بتهذيب كبير لا يساعدها على الدفاع عن نفسها وسط أمواج حوار تهدر عالية.

كتب خالد في مذكراته أن حواره مع أصدقائه، ظل مبعث حزن عميق في نفسه لأيام طويلة، شعر أن ولعه بالظواهر الثقافية يتحول يوماً بعد يوم إلى حالة فردية تعزله عن أصدقائه، لذلك قرر أن يعيد الحوار من جديد معهم محاولاً إقناعهم برؤيته.

كل صباح يحمل معه حواراً جديداً، غير أن الحزن يلون كلماته وحركات أيدي أصحابه، وهو حزن جميل وجليل لأنه يحث على الاجتهاد في المناقشة والتفكير.



خيمة للذكاء

في سياق التجارب التي قامت بها إحدى شركات المواد الغذائية، تمّ التوصل إلى مواد مخبرية تسوق في الأطعمة والأشربة فتجعل مذاقها مستساغاً شهياً، وتنمّي لدى متعاطيه ملكة الكتابة والأدب بأجناسه وفنونه المختلفة.

حققت الشركة أرباحاً خيالية في زمن قصير فقد أقبل المستهلكون على شراء منتوجاتها وراحوا يصطفون أرتالاً منظمة ليحصلوا على أصناف معلبة ومغلفة بأوراق ملونة مزركشة، ومن حين إلى حين، ينفد صبر الواقفين في الصفوف فيتدافعون ويتصايحون مثيرين شغباً غير حميد أمام نوافذ البيع، ولما ظهرت موهبة الكتابة وانتشرت انتشاراً واسعاً بين الزبائن، راح كلّ منهم يحمل قلماً وقرطاساً محولاً انتظامه أو تدافعه أو صياحه إلى أدب يعبر عن واقع الحال.

عجزت دور النشر عن تلبية ذلك الكمّ الهائل من القصائد والقصص القصيرة والخواطر والمقالات، ففرضت الضرورة الطارئة ظاهرة تحويل زوايا المقاهي إلى «صالونات» أدبية وأسواق عكاظ ترفع فيها الخيام بينما يتزاحم حولها المتزاحمون لاحتلال مكان النابغة.

تضاءل حجم القراء يوماً بعد يوم، فقسم كبير منهم يقضي وقته في الكتابة والإبداع، والقسم الباقي يقضي وقته في ترتيب علاقات اجتماعية تؤمن له خيمة من خيام النابغة، وثمة من يفكر في اقتناص الفرص وشراء خيمة خاصة بسند تمليك، يستأجر من يحملها له من مكان إلى مكان ليحقق أغراضاً متنوعة في وقت واحد، حتى إذا أزف موعد الاستجمام على الشاطئ في الصيف سخّرها في السياحة وأنشطتها المتنقلة بين الصحراء والبحر، لتدرّ عليه المتعة والفائدة.

سئم علماء المخابر في الشركة واقع الحال الناشئ بفعل عقاقيرهم وتجاربهم، فقد غطّى الشعر تعاونه القصص القصيرة في مهمته مساحات واسعة من اهتمام الناس، وتراجع شأن العمل اليومي المنتج الجاد.. ترافق السأم المذكور بخشية مسؤولة من العاقبة، فتوصل المجلس المعني بالأمر إلى قرار يوقف إنتاج تلك المواد المشجعة على تعاطي الكتابة واحتراف الأدب.

مرّ زمن غير قصير على قرار وقف الإنتاج، فاحتال بعض المحتالين على الأمر وسوقوا مواد ادعوا أنها مهرّبة من اليابان تفيد في تسريع العمل لتنمو حاسة الإبداع، وتضمّن ادعاؤهم تزويراً لرأي الأديب الياباني الحائز جائزة نوبل للآدب في محاولة لإيهام المثقفين بصدق ما يفعلون ونبل غاياته ومقاصده. لم تخلُ الحالة من بلبلة وتشويش واكتنفها غموض شديد، ولما بخلت بجديد يقرع به الأدب أبواب المستقبل وحديث يعينه في مسعاه، انكفأت الأقلام تستعيد ذكريات الأمس فتعيد ترتيبها وفق الأهواء والأمزجة مسطرة على بياض الورق ماضياً يسمع

فيه صوت الغرور عالياً تصفق له جوقة من المنافع الصغيرة، وفي خضمّ تلك الأمواج الصاخبة يهرول الحريصون على امتلاك الخيام باحثين عن أمكنة يعتلون صهواتها، علهم يرضون شهوة النابغة في النفوس، وإن جهلت في الغالب بقية أمر النابغة وسحر خيمته وجوهر حقيقتها.

زيارة غير متوقعة

في غمرة التفاصيل الصغيرة التي يطوقه بها عمله اليومي في ردهات الوظيفة وقاعاتها، أطلت عليه بقامتها الممشوقة كالبنفسج، توقف برهة غافلاً عن كل ما حوله، مستغلاً اللحظة المتاحة لتأمل ما ظنّ صورته وهماً من الأوهام الكثيرة التي يخلطها بحقائق يومه، فرحاً بما تبثه في نبض زمانه من موسيقا وألوان، ولما لامس واقعاً وحقيقة فيما يراه، صرخ عالياً: «أهلاً» جاعلاً للكلمة امتدادات صوتية منغّمة، تترجم مفاجأة الإنسان برؤية من لا يتوقع رؤيته في لحظة ما من أحبابه البعيدين، فما بالك إذا كانت «من» – هذا الاسم الموصول الجميل والرائع الذي يحمل كثيراً من دلالات صلاتنا بالآخرين – تتصل هنا بإطلالة «ليلى» بعد غياب.

لم يلتقِ عبد الله وليلى منذ سنوات طويلة خلت، عندما يـذكر اسـمها الأصدقاء المشتركون تجده يتعثر على مدارج اللغة، باحثاً عن الصفات المناسبة لترتيب حديثه عنهـا، فكلمـة حبيبـة غـير واردة لأسباب كثيرة، أولها أن كلمة الحـب أعظـم مـن صـلاتهما النفـسية والحياتيـة، وكلمـة صـديقة غـير مرغوبـة في بيئتـه التـي تركب للصداقات دلالات شائكة.

يعـد مـن حـين إلى حـين مجموعـة مـن الكلـمات الـضائعة في هــذا المجــال، فيعــود إلى كلمــة حبيبــة مقلبــاً حروفهــا ووجوهها، غير أنه يتذكر قصة قيس بن الملوَّح مع لـيلاه، ومـا ترويه الأخبار في الكتب عن جنونه، فيصرخ: «لا، كـل شيء إلا الجنـون»، ويـضحك بـصوت عـالٍ، ضـحكاً طـويلاً مـستمراً، لا يوقف مداه سوى تدخل من صـديق حميم يقـول لـه: «حقـاً، إنك مجنون».

وقفـت لـيلى تهـزُّ رأسـها حبـوراً بكلمـة «أهـلاً» المنغَّمـة التـي أعادها غير مرَّة، إعادة مختلفة لا تشبه أختها، وكأنه يرتب قطعـاً

صوتية لسمفونية موسيقية فياضة بالانفعالات، ولما طال وقوفها، أدرك أن عليه الهدوء قليلاً، ودعوتها إلى المكان المناسب لشرب القهوة والحديث.

تحدثا طويلاً عن الماضي البعيد، أيام الدراسة الثانوية والسنوات الأولى في الجامعة، مستعيدين صفحات من الكتب والمجلات والأحداث الاجتماعية والسياسية، التي كانا يهتمان بها مع أقرانهما، تحدثا حتى شعرا بأن الكلام حملهما على بساط ريح وسافر بهما في ملاعب الأزمنة والأمكنة، فامتلأت نفساهما غبطة، وعادا أدراجهما إلى طاولة القهوة التي سكنت إليهما مطمئنة بوداعة كلماتهما التي تشبه هديل الحمام، وقد دفعها فضولها إلى سؤالهما عن السنوات التي لم يلتقِ فيها كل منهما الآخر، فوجدتهما واجمين فجأة، مترددين في شرح وقائع الحياة، وعطافات أزمنتها وأمكنتها.

فرح عبد الله بأخبار أسرة ليلى، وما نشرته من مقالات ودراسات، وفرحت هي بأخبار أسرته وما أنجزه في المسرح

إخراجاً وتأليفاً، وعلى جناحين من فرحهما المشترك مضيا يجوبان شوارع المدينة الواسعة مبتسمين لحجارة بيوتها، ولازدحام السابلة، ابتسامات تحية ومودة. دار السينما مهملة قليلاً، لم يعد هذا الجيل الجديد يرتادها، لقد استبدل بها التلفاز وأقنيته التي لا تعدُّ ولا تحصى، المكتبة عامرة بالكتب، ومرتادوها يقلبون الصفحات ويتحاورون، قرب المركز الثقافي لافتة كبيرة تعلن عن برنامجه القادم: أمسيات شعرية وقصصية ومحاضرات وندوات.

حانت ساعة الوداع، قالت ليلى: «إلى اللقاء، سأسافر قريباً»، ردَّ بهدوء: «مع السلامة»، لم يكن ردُّه عالياً شبيهاً بصراخه الذي استقبلها به منغِّماً كلمة «أهلاً»، لذلك أصرت على الاحتفاظ بها كلمة سرّ تفتح بها حواراتها القادمة عن مدينتها القديمة، وأصدقائها القدامى، أما هو فظلَّ أياماً يؤكد أن اللقاء حقيقة واقعة ومفاجأة جميلة، وبات يرفع في شعاراته المتداخلة، أن الأجمل ما كان مفاجأة.

سهرة حب مع «حثالة البروليتاريا»!

كان عبد الله في مرحلة الدراسة الإعدادية، عندما عرض عليه قريبه ظافر فكرة مشاركته البيع المتجول لبعض ألعاب الأطفال وحاجاتهم، في أيام عطلة عيد الأضحى المبارك، في ذلك العام البعيد من الستينيات الماضية.

راقت له الفكرة، فهو غريب في دمشق، التي جاءها بصحبة أمه لزيارة خالته المقيمة في صحنايا، ولن يعلم أحد من أقرانه في مدينته البعيدة، أنه انطلق يصيح بأعلى صوته، مروجا لما يحمله في كيس كبير من ألعاب وحاجات، فانطلق مع صاحبه، قاصدين حديقة «ابن عساكر» القريبة من «باب مصلى»، متعاونين على ترويج ما يحملانه، حتى إذا رحل النهار، وبدأت طلائع الليل تخيم على المكان، تقاسما الغلة قسمة الحق، مسرورين بنفاد حمليهما، نفادا حسنا.

عادا أدراجهما منفرجي الأسارير، يتبادلان في طريق عـودتهما، خطة إعادة التجربة في اليوم التالي، وها هما يودعـان النهـار الثالـث مـن العطلـة، بـشعور مـنْ كَـبرَ ثـلاث سـنوات في ثلاثـة أيـام، مسترجعين ما حفظاه من الناس والمعلمين والكتب المدرسية، مـن عبـارات ومـصطلحات تـساعدهما عـلى التعبـير عـن واقـع حـالهما الجديد، استرجاعا قادتهما دروبه بحماسة لافتة إلى اكتشاف صفات جديدة، بات يحملها كل منهما، وقـد أصبحا بعـد عملهـما المتفـاني، وكدهما الطويل، من طليعة «البروليتاريا» العالمية...

توجت حواراتهما باقتراح تأسيس حزب جديد، يشجعان من يعرفان من الأصحاب على الالتحاق به، يكون لـه جناحـان أساسيان: الأول في العاصمة يتولى أمره ظافر، والثاني في مدينـة الأقرباء البعيدة يتولى أمره عبد الله.

حاولت أمه، في طريق سفر العودة، استدراجه للحديث عن حواراته مع ابن أختها ظافر، فقد انتابها شعور بـأن نفسه تخفـي خافيا مهـمّا، لكنّـه شـاغلها عـن مـسعاها، بـما يريانـه مـن مبـاهج الاستراحة التي توقفت فيها حافلة السفر قرب مدينة «النبك».

ضم الجناحان العتيدان نحو ثلاثين من أقرانهما ومعارفهما، في الأشهر التالية المتلاحقة، وقد اعتراهم جميعا قلق واضح من غياب أفكار واضحة تجمع شملهم، فاقترح واحد منهم اسمه سعيد استشارة مدرس الفلسفة الذي لا يفتأ يتغنى بروعة «البروليتاريا» العالمية، ورسالتها التاريخية في تغيير العالم...

اقتضى الاقتراح سفر عبدالله من جديد إلى العاصمة، وبعد جدل طويل مع ظافر وأصحابه، عاد فرحا بما لاقاه الاقتراح من قبول وتشجيع، حتى إذا أزف موعد لقائه مدرس الفلسفة، في جو من السريّة التامة، فوجئ بموقفه من قصة انتمائه الطبقي مع قريبه ظافر، اعتمادا على عملهما بائعين متجولين، إلى «البروليتاريا» العالمية، واعترته دهشة فغر معها فوه، عندما قال المدرس حاسما الموضوع: «هذا العمل لا يمنحكما أكثر من صفات «حثالة البروليتاريا» في أحسن تقدير.

عكرت نتائج حواره مع مدرس الفلسفة مزاجه، وسببت سوء تفاهمه مع قريبيه سعيد وظافر، وبقيّة الأصحاب، فمضى

كـل إلى غايتـه، متناسـين فكـرة الجنـاحين، منـشغلين بـدروس المرحلة الثانوية وتحدياتها الجسام.

تعمّـق اهتمامـه بموضـوعات التركيـب الطبقـي للمجتمـع ومواصفاته، بعد تخرجه في قسم «علم الاجتماع» بالجامعة، وصار لديه قائمة طويلة من المصطلحات التي تزيـد أحاديثه مع النـاس غموضـا، ولاسـيما مـصطلح «البرجوازيـة الطفيليـة» (وهـي غـير الصناعية والزراعية والتجارية وما شابه من برجوازيـات خلـق الله الذين لديهم ذوق وفكـر وفـن، فهـي نـسيج ذاتهـا، لا توجـد إلا في سراديب أربعين حراميا... وقـد نقـل الـرواة عـن الـسيد بورجـواز الأول جد البرجوازية العالمية، أنه تنبأ بأخبارهـا متأسـفا عـلى زمـن تأكـل فيـه الأخـضر واليـابس، وتفخـر بأنهـا أحـط مـن سـار عـلى قدمين)... سيطرت على أحاديثه مثـل هـذه المـصطلحات ومتونهـا وشروحها، وهذا ما جعل كثيرين ينفرون من محادثته ومعاشرتـه، لكثرة تماديه في ذم هذه الفئة الاجتماعيـة المتناميـة خـارج سراديبهـا، وقد باتت عنوانا بارزا للنجاح في الحياة، واكتساب المغـانم، يميـل الناس إلى محاباتها، وتجنب منتقديها، وخصومها.

في ساحة البلدة التي أقام فيها منذ التحاقه بوظيفته الثقافية المرموقة قبل سنوات، تتجمع في كل صباح جماعات من الناس الراغبين في الحصول على عمل، عن طريق تقديم خدمات متنوعة، مثل نقل النحاتة والرمل والإسمنت إلى مشاريع البناء التي لا تتوقف في تلك البلدة من ريف العاصمة، مستبدلة بأشجار بساتينها طوابق إسمنتية عالية، تكاد الروح تختنق في ازدحام اصطفافها العشوائي، أو الذي يبدو عشوائيا، لغير الخبير في قضايا الهندسة والبناء.

كان يستغّل طول وقت انتظاره لحافلات النقل كل صباح، بمحاورة أفراد من تلك الجماعات، فتكونت لديه معلومات كثيرة عن ماضيهم البعيد في قراهم البعيدة عن العاصمة، التي غمر بعضها سد «النهضة الشهير»، وانتقل سكانها إلى القرى غير المغمورة بمياه السد، قبل انتقال أفراد منهم للعمل في ريف العاصمة بأعمال شتى.

صار له غير صديق حميم منهم، يشعر براحة نفسية عميقة في محاورتهم، ومجالستهم التي انتقلت به وبهم من الوقوف على

رصيف الساحة، إلى السهر في المقهى القريب، وكم كانت فرحته كبيرة عندما تقبل مجالسوه رأيه في انتمائهم الطبقي إلى «حثالة البروليتاريا»، برحابة صدر، (تقبلوها من دون اكتراث، فظن في ذلك رحابة صدر).

بمناسبة استقبال العام الجديد، قدم المقهى عرضا لرواده بتقديم وجبات العشاء والمرطبات المثلجة المتنوعة، فأقسم أن يدعو أولئك الأصدقاء جميعا ليكونوا ضيوفه في سهرة ذلك المقهى، وعندما طال السهر، استيقظت في خبايا نفسه ذكريات طفولته الحالمة، فحدثهم عن ماضيه البعيد، وخلافه مع ظافر، فظنوه يفتخر بانتمائه المشترك معهم إلى فئة واحدة، فصاح واحد منهم: «عاشت حثالة البروليتاريا»، وهتف أصحابه ثلاثا: «عاشت، عاشت، عاشت»، فضج الساهرون في المقهى، وردد قسم منهم الهتاف عاليا، عاليا، ترديدا حماسيا جعله يعود إلى منزله منتشيا بنشوة لم يذق مذاقها الحميم منذ سنوات طوال.

شخصيات بليدة المشاعر

أصبح حضور الأنشطة الثقافية المختلفة عادة متأصلة في سلوك عبد الله، مما وفر له فرصة مناسبة للاطلاع على أنماط متنوعة من التفكير الثقافي المعاصر، غير أن هذا الاطلاع راح يوقعه في حوارات ساخنة مع بعض الناس، ناهيك عن التناقضات التي يولدها أحياناً في قناعاته المتراكمة على ساحات نفسه.

إن ولعه بتحليل الظواهر الاجتماعية يلح عليه ويدفعه إلى مقارنات لا تنتهي بين التجليات الأدبية والنفسية ونظائرها الاجتماعية، وفي خضم واسع من هذا الطراز، تجده يرفع صوته أحياناً محتجاً على هجوم شاعر غاضب على امرأة يحبها، قائلاً: إن مثل هذا الهجوم لا يحدث بين المحبين في الواقع.

وتجده يعارض سكون بعض الشخصيات القصصية وركودها، محتجاً بأن شخصيات الحياة، لا تسكن ولا تركن لأنها في حراك دائم، ينميها من طور إلى طور.

تعرض مؤخراً لنقد عنيف اللهجة عندما هاجمه أحد النقاد، مفنداً حججه ومزاعمه متهماً ما يقدمه عن الواقع والحياة من صور تقابل صور الأدب بخيانة الحقيقة ومجافاة دلالتها، لأنه أسير أوهام ذاتية مضللة.

لم يكن ما تلقاه من نقد وهجوم بالأمر اليسير، فقد اغتم طويلاً، وانعزل في منزله منكفئاً عن المشاركة في حضور الأنشطة الثقافية ومناقشاتها التي كونت قناعاته بما لم يكن ينتظره منها.

عاده أصحابه مستفسرين عن أحواله، وبواعث انقطاعه عن حضور الأنشطة فبثهم لواعج نفسه، وامتد بساط الكلام به وبهم، حتى تلون بأسماء شخصيات كثيرة، من عوالم الأدب وكتابه، ومن عوالم الواقع والحياة، وفيما كان يتابع شريط الأسماء، وجدته يقف ملوحاً بقبضته نحو صدره، وهو يعترف بصواب موقف من نقده وهاجمه، وصحة رؤيته فقد حَملت له تلك الأسماء الكثيرة أنماطاً من أشخاص الحياة الذين قلبتهم أيامها تقليباً هادئاً، يتفوق عليه السكون والركود، شوقاً وتوقاً وحراكاً، فكّر ملياً بحيواتهم، فأدرك أن الأدباء الذين يصورون

شخصيات قصصية ساكنة وراكدة وبليدة، لا يخونون الواقع دائماً – كما كان يدعي من قبل –.

طالت زيارة أصحابه له، وقد سرّهم اعترافه بالخطأ، وجسارته في تقبّل النقد الذي وجّه إليه، فدعوه إلى فكّ أطواق العزلة عن نفسه، والعودة إلى سيرته الأولى في المشاركة النشطة في المحاضرات والندوات.

ودّعهم بحفاوة، وعاد أدراجه يلملم بقايا الحوارات والأحاديث، معيداً ترتيبها في سريرته، فانتابته خشية مفاجئة من اقتناع أصحابه بمشروعيّة السكون والركود في رسم الشخصيات الأدبية، لذلك وجدته يركض نحو باب الدار علّه يفلح في حثّهم على العودة لمتابعة الحوار في بعض وجوهه، ولما خاب مسعاه المتأخر عنهم بعد اجتيازه عطافة الشارع، عاد يضرب يداً بيد مقسماً أنه لن يوافق على وجود شخصيات ساكنة وراكدة وبليدة المشاعر في قصص الأدب، مهما أثبت له الأصحاب من حجج تؤكد وجود نظائر لتلك الشخصيات في الواقع والحياة.

كان ذلك بداية تمرده على صفة الواقعي في الأدب، واندفاعه مع موجات التجريب الأدبي الذي يقوده الخيال من واد إلى واد.

في غمرة تمرده واندفاعه، تعلّم الإصغاء إلى أصوات منتقديه ومهاجميه، ولم تعد العزلة في المنزل تستدرجه أو تستهويه، فقد غدا أكثر إيماناً بأهمية الحوار لبيان قناعاته، والدفاع عنها.

ألقى أحد الأطباء المعروفين مؤخراً محاضرة طبية، رأى فيها أن الركود وبلادة المشاعر، من الأمراض الخطيرة التي تصيب الإنسان في العصر الحديث، فصفق عبد الله مقاطعاً المحاضر بعبارات الثناء والتأييد، مثيراً جلبة لم ترق للحاضرين الذين لاموه على تصرفه فقرر أن يسوّد مئات الصفحات ليدافع عن أهمية حماية الإنسان والأدب بآن معاً، من مرض الركود وبلادة المشاعر، مدعياً أنّه سارٍ ينتقل بالعدوى، ويضعف المناعة حتى يسيطر على خلايا الوجه والكلام.

شخصيات مسبقة الصنع

اتفق أحد الباحثين في علم الاجتماع مع زميل له يعمل في مجال البحوث الدولية الصيدلانية على القيام بتجارب مشتركة في ميدان الطباع والسلوك، فقدما أقراصاً دوائية لفتى ناشئ تعزز طبع البخل في نفسه، ونجحت التجربة في خلال أيام، فقد غدا الفتى بخيلا من الطراز الممتاز، تتغلغل في طبعه صفات البخلاء، يوما بعد يوم، طاردة من دروبها أية نزعة تحد من انتشارها.

ابتدأت أمارات السلوك المكتسب بالظهور في العلاقات المادية، فراح الفتى يقصر في تقديم الواجبات ذات الصلة بالطعام والشراب، ويتهرب من استقبال الضيوف، ومن تسديد ما يترتب عليه في الشؤون المالية، وعندما استفحل تأثير التجربة فيه، صار اكتساب نتائجها يبرز

من خلال الكلمات والمواقف المعنوية، فهو يتهرب من التفوه بكلمات تمنح الآخرين طمأنينة اجتماعية اعتادوا اكتسابها من خلال الحديث معه، فراحوا يفسرون معالم سلوكه تفسيرات شتى. لم يعد يرى معالم الجمال والفرح في الناس، لأن مثل هذه الرؤية ترتب عليه تقديم مقابل يبخل به.. إنه ينظر إلى الأمور كما يحلو له، فيقلب الحقائق ويطلي الأسماء بدهان أسود يشوه حروفها أو يغيبها ويخنق طعم النور فيها. لقد تأثرت لغته بهذا الطلاء فغابت من مفرداتها دلالات الثقة والصداقة والود ونبتت الأشواك على حواف جمله وعباراته، وانعكس كل ذلك على مرايا استقباله في المجتمع فتضاءل مريدوه وتجنبه عارفوه.

تراجع شأن الصفحة التي يشرف عليها في مجلة يعمل بها، وغدت أقسامها وزواياها، لا تنشر إلا أخبار السوء ما دام المشرف عليها والمكلف بها يدفع عن ساحاتها أي خبر قد ينطوي على إضاءة المواقع أمام خطى الناس.

صار عمله يقتصر على تتبع الزلات والسقطات، فسيطرت القتامة على سطوره، وترجح على حبالها حسد وحقد تلفهما عباءة من الكراهية يتطاير الشرر من خيوط نسجها، أحس الباحثان المراقبان باستفحال الخطر في تكوين صنيعتهما، فعقدا اجتماعا عاجلا، تدارسا فيه نتائج فعلهما، وراعتهما تلك العلاقة المستحكمة بين البخل وغيره من الظواهر الاجتماعية السلبية، ورغبا في تمديد فترة التجربة ليتأكدا من تمركز المساوئ في السمة، لكنهما أشفقا على الفتى وعلى المتعاملين معه في الوظيفة والحياة، وخشيا من وجود قوانين تردعهما عن تماديهما في التجارب البشرية، فأسرعا إلى تأمين علاج ناجع يعيد طباعه الإنسانية الأصلية، مدركين أهمية هذه العودة لإنقاذ وجودها الغارق في لجج ظلمات لم يحسب حسابها من قبل.

فوجئ المسافر في عربات هذه الكلمات بنتائج تجربة الباحثين، فلم يعهد من سابق أن يضنّ صاحب البخل بالكلمة

الطيبة والموقف الاجتماعي الإيجابي والشهادة السمحة بالآخرين والعواطف النبيلة، أمعن النظر في هذا الأمر، فاستنتج أن البخل درجات ومراتب، لعل الحرص على المقتنيات المالية والمادية أقلها إيذاء للنفس على دروب تفاعلها الإنساني الواسع.

ربابة هوميروس في غرفتي!

كان عبد الله قد انقطع عن الكتابة في الصحافة منذ زمن طويل، بسبب تذمره من الأساليب التي يتعامل بها كثير من المشرفين على الأقسام الثقافية للصحف مع الشعراء والكتاب، لم يشعر واحد من أولئك المشرفين بطول مدة انقطاعه عن النشر، فكثيرون منهم غير مؤمنين بمواهبه الأدبية، فضلا عن التأثير الواسع الذي مارسته في هذا المضمار وغيره، أغنية لمطرب شعبي ذاع صيته، تقول حكمة بعض مقاطعها: «ما قلتلك يا قلب\ والعايفك عوفه\ ولو صادفك عالدرب\ حيّد ولا تشوفه»..

غدا موقفه غير قابل للأخذ والرد، وترسخت قناعته بحال انقطاعه، فراح يدبج ما يكتبه من قصائد وقصص وخواطر، في أوراق ودفاتر، يحملها في حله وترحاله، حتى إذا شعر بأن المقام

يسمح له بقراءة ما يختاره منها على الناس الذين يقابلهم، أطلق لصوته العنان، كأنه يؤكد لنفسه برفعه حدة صوته انتصار وسيلته البدائية في نشر كتابته، على وسائل الصحافة الحديثة التي شاء مقدّر الأقدار أن تنقطع سلاسل علاقته بها، وكلما تذكر طرق بعض المشرفين على أقسامها الثقافية في السخرية من شخصيته وما يخطه قلمه من كتابات، ازدادت رغبته في رفع صوته، واستمالة أناس جدد إلى سماعه...

على طريق تلك الاستمالة، راح يكتشف تقنيات لم يكن له خبرة بها، ففي أثناء قراءته للآداب العربية والعالمية القديمة، اكتشف أن الربابات كانت تعين الشعراء القدامى على إيصال أصوات قصائدهم وكتاباتهم إلى مسافات وقبائل بعيدة، فاشترى ربابة أنيقة، واتبع دورة لتعلم العزف على وترها واستنطاقه اللغة والحب والحنان...

نعم الاكتشاف، كان اكتشافه، فها هو في محطة نقل «البولمان» يعود من جولة متنوعة في المحافظات، قدم

فيها قصائد وقصصا، حملتها أنغام الربابة إلى قلوب كثيرة، غدا لاسمه في خفقانها مكان... وها هو في قاعة استقبال المسافرين في المطار، يعود من مشاركاته في مهرجانات عربية ودولية، حاملا ربابته مع أكياس الهدايا لأمه وخطيبته واقربائه وأصدقائه...

لم يكن ليهتم بتغيير المدراء والوزراء، فقد غدت الربابة الصغيرة ساحة أحلامه وهمه، غير أن ذكر المذيع لاسمي وزيري الثقافة والإعلام الجديدين، أثار فيه فضولا ساخنا، فالاسمان أثيران لدى قلبه، ربطته بصاحبيهما علاقات الزمالة والصداقة من أيام الدراسة الجامعية... لم يستطع كتم ما يعتريه من مشاعر، فاستغل وجود وحدات إضافية في هاتفه المحمول، بسبب عرض شركة الاتصالات، واتصل بالسيدة التي تعمل في الطباعة الخاصة، وترقن ما يكتبه من كلمات على الحاسوب، استوضحها الأمر، فأكدت له الخبر، مضيفة أن الوزيرين الجديدين شرعا منذ اليوم الأول لاستلامهما مهامهما، في تطبيق أسس جديدة للعمل مع الكتاب والمثقفين، فغمرته فرحة

عارمـة، وكـاد يـضرب برباتبـه عـرض الحـائط، ليعـود إلى سـيرته الأولى أديبـا حـديثا في مؤسـسات ثقافيـة حديثـة، لـولا تريثه قليلا...

في صباح اليوم التالي قصد صديقيه القديمين وقد أصبح كل منهما وزيرا، متأبطا أوراقا ودفاتر ملونـة، علـت بعـضها سـمرة قديمة وغبرة، فاصطدم تقدمه إلى البـاب المقـصود، بظـل رجـل طويل القامة عريض المنكبين، بادره بسؤال مختصر حاد: إلى أين يا أخ؟، ولما همّ بالإجابة عرفه السائل من بحة مميـزة في صـوته، فأتبع سؤاله السابق، بسؤال جديد: بعدك عايش؟...

كـان صـاحب الـسؤالين رئـيس القـسم الثقـافي في إحـدى الصحف الرئيسة التـي أقـصته عـن أبوابهـا ذات يـوم، فظـن أن الزمن غيره وجعله قريبا من صديقه الوزير، غير أن الحوار معـه سرعان ما كشف له المخبوء، فصديقه هو الـذي تغـير، وأصـبح يشبه رئيس القسم الثقافي... هاله ما سمع، فلم يـرد التأكـد مـن صحته، «إشفاقا على حلـم»، وعـاد أدراجـه إلى غرفتـه الـصغيرة

التي استأجرها مؤخرا على سطح إحدى العمارات العالية، أغلق بابها الصغير خلفه، وحضن ربابته، تطلق أنغاما لها أنات، فيردفها بصوته المعروف ببحته، مرتلا قصائد مبهمة...

استرقت السمع عبر الجدار غير السميك لأنّات منبعثة من الغرفة المجاورة لغرفتي، لم أكن أعرف ساكنها الجديد، غير أن أنات ربابته أيقظت روحي من غفلتها، فقصدته من دون إبطاء، قرعت بابه، وشاركته أناته، فسكن إلى بحّة صوتي، مكتشفا فيها، ما يشبه رنّة بحّة صوته، وأصبحنا صديقين بعد دقائق من تعارفنا، وها نحن نتجاذب أطراف الحوار مع أنغام الربابة تارة، ومع أصدائها في روحينا تارة أخرى.

كان يمسك ربابته، في غرفته تارة، وفي غرفتي تارة أخرى، باعتزاز وكبرياء لا يخلوان من طرافة، وكلما شعر بجهلي تاريخ فن الربابة في التاريخ، راح يسهب في شرحه، مؤكدا أن هوميروس الإغريقي العظيم كان يرتل قصائد ملحمتيه «الإلياذة» و«الأوديسة» للناس وهو يعزف على ربابته، وكانت

كلماته في هذا المضمار تؤثر في نفسي تأثيرا عميقا، وتشعرني بأهمية علاقتي بواحد من حفدة هوميروس الثقافيين في التاريخ، فينتابني شيء من الزهو، وكم قطعت العهد على نفسي، المرة بعد المرة، أن أشتري كتابي ملحمتي هوميروس، وكتاب ملحمة «الإنياذة» التي ألفها الروماني فرجيل بعد قرون، تتمة للإلياذة، كي أعمق معرفتي بسير شخصيات، وقصص ربابات، أتداولها مع الصديق الجديد، من دون سابق معرفة مناسبة.

سمك البحر.. في قرية نائية جداً!

خفض بائع السمك البحري صوته، وناداني باسمي الصغير عارياً من الألقاب والمقدمات التي تسلب أسماءنا عادة حاجاتها الفطرية إلى الدفء والحنان، وترفع حاجزاً كتيماً دونهما.

تابعت طريقي غير مكترث بما سمعت، قلت لعله وهم من الأوهام الكثيرة التي يلذّ لي الترجح بين يديها من حين إلى حين. كرر بائع السمك نداءه مضيفاً إليه عبارة: **«هيه.. ولو!»**، فانتفضت من شرودي ورجعت أدراجي إليه، قابلني بصمت، غير أن عينيه لمعتا بإشارات يختلط فيها السحر بالماضي بأشياء مبهمة، طالما مازجت صميم كياني، وسببت مشاعر خوف وقلق، لا يعلم إلا الله كم عانيت في السنوات الماضية من مكابدتها.

إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا البائع في ساحة البلدة الجبلية العالية التي أقيم فيها منذ خمسة أشهر، إنها ساحة ترابية تتحول إلى سوق عامرة صباح كل يوم أحد من أيام الأسبوع التي توزع أسواقها على القرى والبلدان المجاورة بطريق مماثلة. تحصر صيدلية «حميد» ودكان الحاج «صالح الحدي» ضلعي زاوية قائمة يفترشها باعة الخضار والفواكه بينما يغلقهما باعة السمك والدجاج بوتر يكمل مثلثاً قائماً، راحت الظواهر تتحول إلى أشكال هندسية متنوعة بعد صحبتي مع جاري المختص بالفيزياء، وغالبا ما أتركه يسهب في تحديد تلك الأشكال وتقدير أضلاعها وزواياها وأقواس دوائرها، وأعد على أصابعي حاسبا موعد وصول البريد، فيظنني أشاركه في الحساب والتقدير، ويثني على رهافة الحس العلمي لدي، أستغل حسن ظنه بي وأطلب منه مرافقتي إلى مبنى البريد، الذي يعود مديره صباح كل أحد بعد سفره إلى مركز المحافظة لإجراء تبادله الأسبوعي المعقد بين الوارد والصادر، شرحه لي مرارا ولم أفهمه تماما. نعبر المثلث مجتازين تقابل ضلعيه ووتره

-٨٠-

جيئـة وذهابـا منـشغلين بفلـسفة العلـوم بالـذهاب وبفـض مظـاريف البريـد في الإيـاب حتـى إذا فطنـا لاقـتراب موعـد الغداء، رجعنا إلى المثلث الـذي يخيب رجعتنـا إليـه بانفـضاض وتـره وضـلعيه وتحولـه إلى مـساحة هلاميـة يفرشـها الـتراب ساحبا منها فرص التحـول إلى شـكل هنـدسي يوافـق الأشـكال التي تقوم عليها فلسفة الجار المختص بالفيزياء، وقـد اسـتغليت المناسـبة مـرة وشـككت بقوانينـه معارضـا بـين الفيزيـاء والرياضـيات، فحنـق حنقـا شـديدا وأكـد لي أنهـما سـيان، وبـين المعارضـة والحنـق والتأكيـد، تجـدنا في الـدكان القريـب – عنـد الحاج صالح - نستبدل بمعلباته ما فاتنا من معروضات السوق الزائل إلى أحد قادم.

لم يكن معي عندما حضرتني هـذه الـصور وأنـا واجـم أمـام بائع السمك، أحاول تفسيرا لما يناديني به من كلمات.

لعلـه تعرفنـي في انغـلاق مثلـث الـساحة عـلى ذهـابي إلى البريـد وإيـابي منـه كـل أسـبوع، ولعلـه.. قاتـل الله الأحـرف المـشبهة بالفعـل، تفـتح أبوابـا يـصعب إغلاقهـا. بعـد تنقـل

سريع من باب إلى باب، سألته سؤالا صريحا عن السبب الذي دعاه إلى مخاطبتي باسمي الصغير، وبصوت حميم يحملنا إلى أعماق سحيقة تتراقص على جدرانها مواكب من مودة مفقودة.

ابتسم ابتسامة تنم عن تفهمه مقاصد سؤالي وإدراكه معانيها، ومع ذلك انشغل عني بترتيب تجارته الصغيرة، واكتفى بقوله السريع: «أنت واهم، أنت تتوهم كثيرا يا عبد الله». ابتعدت عنه أجر الخطى وئيدة، وصوته يفتح لذاكرتي دروبا تألفها وهو يترنم ترنيما رخيماً مروّجاً لما بقي لديه قائلاً: «مال عدن يا سمك».

صانع الحقائب الجلدية!

ترك عبد الله المدرسة، فاحتار ذووه في اختيار مهنة تلائم رقة عوده، ولم تطل حيرتهم، فوضعوا لها حدا بوساطة موازنات ومقارنات سريعة رأت أن صناعة الحقائب الجلدية توصل صاحبها إلى رتبة الثراء السريع، وبناء على ما تقدم أصبح طفل الأمس صانع حقائب يمضي ساعات يومه بين تفصيل الجلود ولصقها وجمعها لتأخذ أشكالاً مختلفة متنوعة.

سمع صاحب المؤسسة بأهمية التخصص في العالم المعاصر، فجعل للعاملين فيها مهمات محددة تطوقها دائرة الاختلاف والتنوع فرحة بتطويقها مجموعة من الأسارى الذين استبدلوا بحرية عطائهم تخصصا ألحق عبد الله بجانب محدد من الإنتاج يعنى بحقائب السفر الكبيرة.

تتالت الأيام وهو يراكم بين يديها حقائبه مراعياً خفة الـوزن في جلودهـا ومـا يـدخلها مـن ورق مقـوى ومـسامير مـن دون تفكير في الغايات البعيدة لمراعاته. إنها مجرد تقليـد مهنـي التزمـه وحـذق في تطبيـق بنـوده حتـى علـم مـصادفة أن الحكمـة مـن المحافظـة عـلى التقليـد المـذكور تـرتبط بوظـائف الحقائـب التـي ينتجها، فالزبائن يستخدمونها في السفر جوا، وشركات الطيران تفرض على المسافرين في طائراتها عدم تجاوز الـوزن المحدد في البطاقـة لكـل مـسافر، ولمـا علـم أن حـدود الـوزن تبقـى دون عـشرين كيلـو غرامـا، ابتـسم ابتسامة ذاهلـة، فهـو لا يـسافر إلى حمص القريبة بمثل هذا الوزن، بل يتجاوزه غالباً، وتـابع عملـه سعيداً بما اكتشفه من لجوء المسافرين إلى الحيلـة بـشراء حقائـب تسمح لهم بنقل حاجـاتهم مـن دون التعـرض إلى دفـع غرامـات مالية على الوزن الزائد.

مرت السنوات وهو يرتب عـلى رفوفهـا الحقائـب والمواعيـد والأحلام، ويسحب خلف حافلاتها الأحاديث عـن الطـائرات وركابهـا محركـاً رأسـه حركـات غريبـة، يـسأله أصـحابه عـن

دلالاتها أحياناً، فيرتبك بحيرة ويتردد باحثاً عن اكتشاف إجابات مناسبة، وينتقل بين أطراف المعادلات التي تفرضها الحياة على أبنائها، ولا يخلو تنقله من شعور بالاعتزاز لأن عمله وإنتاجه حلقة ترن بحلقات الطائرات وشركاتها والمسافرين على متنها.

خاض على دروب المهنة منافسات صعبة للغاية مع أقرانه، وراح كلّ منهم يجتهد في تخفيف وزن ما ينتجه من سلع، تلبية لرغبات السوق الذي يسرع حركته من حين إلى حين والعيون شاخصة إليه بين حركته وركوده لا تدري سبباً وجيهاً وباعثاً حقيقياً لهما.

أصبح هدير الطائرات يثير في نفسه أسئلة لا حصر لها، يترك يديه تتابعان شؤون يومه، ويتابع بعينيه مساراتها العالية في الفضاء راسما في مخيلته صورا لركابها وحقائبهم تشبه صور ما تنتجه يومياً من سلع تبحث عن زبائن يرغبون فيها.



غبار التنافس الوظيفي

دخل الموظف الجديد حرم دائرته، تدفع خطواته الأحلام الكبيرة، وتكسبها الثقة بالنفس توازناً ينغم إيقاعها. إنها ثقة معجونة بسنوات العمر، بين مقاعد الدراسة الثانوية والجامعية ومنابر المنتديات الثقافية والاجتماعية، استقبله المدير استقبالاً خاصاً، أعطى أوامره بإغلاق أبواب القاعة الواسعة التي احتل بطاولته صدرها، واقترب من الموظف الجديد بهمسات صوته شارحاً ظروف الدوام وأعباءه مفسراً مستغلقاته، عارضاً خدماته داخلاً وخارجاً. كاد الفرح يهل على المكان، لولا تدافع الشروح والعروض متعلقة بالكتفين العريضتين لطلبات ترهن الأيام في ذمة مسالك غائمة الوجه رمادية الضمير.

فهمت الرسالة تماماً، كل همسة شاردة أو واردة تتناول العمل الإداري بالنقد، أداة تخريب يجب إيقافها عند حدها، وكل تأخر عن مقاومتها يعني المشاركة فيها والتواطؤ معها كان الدرس واضحاً، حفظه الموظف الجديد ونفذ تمارينه الكتابية والشفهية بدقة أثارت حيرة زملائه الذين ينافسونه في المهام معلقين على صدورهم أوسمة الكفاءة المهنية التي تجعل للعمل الإداري عيوناً وآذاناً عند كل طاولة وجدار. أصبح الموظف الجديد نجم دائرته بسرعة عجيبة، ولما شعر الآخرون بمواهبه وأدواره، صاروا يدارونه، فازدادت مكانته علواً، ملحقه باسمه الألقاب، فهو عالم قدير موهوب وطني حريص على المصلحة العامة.. الخ.. كانت المنافسات تسلب الطبل والزمر من هذا البريق سراً وعلناً، فتخسر الكلمات مصداقيتها، وتتحول النظرات إلى منعكسات باردة عاجزة عن التعبير. تتالت الأيام مبدلة بالجسد الشاب الغض بدانة وغلظة، معمقة عادة الإصغاء إلى الدروس في الشخصية، قاتلة في ذاكرتها فرحها

بقصائد أبي ماضي والسياب والماغوط، مقدمة سلالم المنافع والمكاسب إلى جدران الحياة.. أصبح الموظف قديماً، تنقل السجلات اسمه وصفاته من صفحة إلى صفحة، قبل أن تمددها على أسرة الرفوف، والمنافسات تنجح بين الحين والحين، في تبديل الوجوه والصفات، فيصبح العالم المثقف الموهوب، جاهلاً أمياً بليد الفهم والإحساس. يترافق المشهد بتمجيد طنان رنان للموضوعية والسلوك الموضوعي، بينما تلهب لعبة شد الحبل الأكف تصفيقاً.

أقامت الدائرة حفلاً تكريمياً بمناسبة بلوغ الموظف سن التقاعد، استلم هديته وأصغى إلى رنين الخطب، فضحكت في عينيه دمعتان محملتان بالعتب، يقرأ المتابع فيهما لوماً إنسانياً صافيا للآخرين على تسابقهم المجنون في ملاعب تمحو الرياح من صدرها خطوط الموضوعية وبهاء الصدق.

وجد المتقاعد متسعاً من الوقت لمطالعة الصحف والمجلات والكتب، قرأ على صفحاتها معادلات فنية لما مضى من عهده

بالعمل. أسماء جديدة لكتاب ومثقفين، لم يسمع بهم من قبل، قصائد وقصص وروايات، مقالات ودراسات وخواطر، أدب قومي وأدب مترجم، أدب قديم وأدب حديث، كلما قرأ سطراً شده سواد الحبر إلى مساحات جديدة تنبض بالحياة، يستعيد لخطواته ثقتها البريئة الأولى، نافضاً عن نعليها ما علق فيهما من غبار التنافس الوظيفي، ليبدأ الرحلة من جديد.

كم قميص...

رافق أمه في زيارتها إلى بيت أقاربها في القرية غير البعيدة، راق له الجلوس تحت شجرة تفاح مميزة في البستان المحيط بمنزلهم، سقطت تفاحة من غصنها المتدلي، فأصابت ذراعه الغضة، تألم قليلا وتذكر قصة جده آدم مع التفاحة، فسارع إلى مسح التفاحة التي أوجعت ذراعه بكم قميصه، وهم بأكلها، غير أن صوت العالم نيوتن ناداه بلهجة آمرة، وقد برز له في فضاء البستان، ينهيه عما عزم عليه...

كان أسلوبه في الكلام يشبه أسلوب معلمته القديمة القاسية في مرحلة دراسته الابتدائية، فتذكر عبارتها التي حفرت في ذاكرته أخدودا: «سأدهن أذنيك بالزيت وأرميك في غرفة الفئران»... لم تنفذ يوما وعدها المرتبط بسين سوف، لكنها سربلت طفولته بالخوف، وطبعت تفكيره بالغموض.. لم يفهم يوما أسرار العلاقة

بين الزيت وتلك الغرفة الموعودة، فراق له أن يستغل وجود عالم كبير مثل نيوتن، ليسأله عن تلك الأسرار، ولما هم بالسؤال تداخلت كلماته في تراكيب مبهمة، وسرعان ما تركه نيوتن ومضى، وكل منهما يمسح دموعه بكم قميصه.

شاهدته بنت أقاربهم من نافذة غرفتها، فظنته حزينا بسبب عدم اكتراثها به، وأسرعت مشفقة تحضر له الشاي، وبعض المعجنات المنزلية، حتى إذا اكتملت عدة ضيافتها، زينتها بزينة لائقة، وقصدته مرددة بصوتها الناعم أغنية ريفية محبوبة، غير أنها لم تجده في المكان، فراحت ترفع صوتها تناديه، وصدى الصوت يتردد في فناء البستان من دون جدوى.

كان ذلك آخر عهدها به، فقد انقطعت الزيارات بين العائلتين، متأثرة باتجاه الحياة وتفاصيلها إلى حالات البرودة والصقيع، ومضى كل إلى غايته، غير أنها كانت تتذكره من حين إلى حين، مشفقة على صورته التي ظلت عالقة في خيالها البعيد، وهو حزين تحت شجرة التفاح، يمسح عينيه بكم قميصه.

صارت صورته تلك تزورها في محطات اندياحها مع رحلات خيالها، الذي نما له جناحان من ريش وردي، منذ تخرجها في كلية الآداب... تسمعها أمها تنغم أطراف الحديث، وقد تركتها للتو ساهمة في ركن مهندم من غرفتها، فتسألها من المطبخ، المكان الأثير لديها:«مع من تتحدثين يا ابنتي؟»، فتصمت مخبئة الصورة في صندوق خيالها، وإذ تخشى أن يبقى كم قميصه عالقا متدليا خارج الصندوق، تطويه بكفها الصغيرة، وتدفعه بعيدا، لكنها تشعر بحاجتها إليه فجأة، فتخرجه قليلا، تمسح به دموعها، وتعيده إلى قاع الصندوق العاتم، وهي تهندم صوتها، لتجيب أمها المنشغلة بمطبخها: «لا أتحدث مع أحد... أنا وحدي هنا... وحدي...»، ثم ران الصمت على المكان، فراحت كفها تعابث «الشناشيل» الوردية المطرزة على غطاء الصندوق، وهي ترنم ترانيم فياضة بالحنان.

المـرأة والقـانون

دعي أحد الشعراء للمشاركة في ندوة فكرية تتناول موضوع «المـرأة والقـانون»، فـتردد قلـيلاً لأن مـصطلح القـانون يبعـث في نفـسه غـير قليـل مـن الحـيرة والقلـق والارتبـاك عـادة، فهـو يشعر أن الجوهر الإنساني للنفس البشرية أسمى من كل قـانون في الأرض.

عندما يوقف شرطي السير سائق الحافلة التي تقلـه إلى عملـه ينتابـه شـعور غـامض مـن الخـوف يخفيـه عـن زمـلاء الـسفر في الحافلة بالاستغراق في واحدة من الـصحف أو المجموعـات الــشعرية التــي يحملهــا في حلــه وترحالــه عــادة، حتّــى إذا عـاد الـسائق إلى مقعـده خلـف المقـود المـزين بأشرطـة ملونـة سـأله بـصوته المتعـب «طمئنـي»، وقـد اسـتفز بـسؤاله أحـد الركـاب مـرة فـصرخ بـه قـائلاً: «ومـا علاقتـك حتّـى تطلـب الطمأنينة من السائق؟»، وبعـد جـدال أفهمـوه أنّ قـانون الـسير

ينظم سفر الحافلات على الطرقات مما يوجب احترامه على الكبير والصغير، ففي ذلك الاحترام منطلق الناس إلى التخفيف من عدد حوادث المرور التي يكثر أذاها، ويكبر يوماً بعد يوم.

بعد حوار من هذا الطراز يتظاهر شاعرنا بالموافقة مخفياً ما ازداد في صدره الصغير من مخاوف تصاحب ذكر القانون وأشكال تنفيذه على مدارج الحياة.

بعد تفكير طويل صاحبه استعراض عفوي لشريط من الذكريات ذات الصلة بالموضوع، وجدته يبتسم فجأة معنّفاً نفسه على اعتيادها النظر إلى النصف الفارغ من الكأس، فالموضوع لا يتعلق بالقانون فقط بل بالمرأة، تلك الكلمة التي أعاد نطقها بأناقة واحترام، وكأنّه يذكّر نفسه بكل ما في الوجود من حنان وتسام وجمال.

قرر المشاركة في الندوة، فجمع كثيراً مما قاله أسلافه الشعراء في المرأة وحقها في الفرح والكرامة والطمأنينة، وحاول اختصاره بعبارات قليلة تؤكد ذلك الحق الذي أوصت به

الشرائع السماوية السامية، وخانته التقاليد الاجتماعية الأرضية البالية في غير زمان ومكان.

بدأت الندوة أعمالها بشرح الأسس الصحية والنفسية والاقتصادية، التي تضمن للمرأة انطلاقتها الإنسانية الفاعلة على مدارج الوجود: أماً، وزوجاً، ومواطنة، وإنسانة جديرة بأفراح الحياة عندما تدعوها، وجديرة بأفراح الشهادة عندما تدعوها. تحدث علماء الدين، ورجال القانون، والأطباء، والتربويون، والإعلاميون، والاقتصاديون، والسياسيون، وقادة المجتمع، فتنوعت اتجاهات الحديث غير أنّ تنوعها ظلّ متوهجاً إيماناً بحق المرأة الحرة الكريمة في وجود حرّ كريم.

فرح الشاعر عندما تأكد أنّ المتحدثين يمتحون كلماتهم من معين الإيمان المشترك بحق المرأة في وجود عزيز يسهم في عزة الأوطان ونهضتها.

عاد إلى طاولته الصغيرة وخطّ على الورقة البيضاء عنواناً لقصيدة جديدة: «الفرح آت»، قرأه أحد زملائه فسأله ضاحكاً: «وما علاقة الفرح الآتي بموضوع الندوة؟»، فراح يشرح له

قصة القوانين التي تضمن حقوق المرأة، ومستقبلها الناهض بالعمل والعطاء، مبيناً ارتباط تلك الحقوق بتطوير القوانين التي تنظم العلاقات بين الناس تنظيماً يؤهلهم للدخول إلى ساحات البهجة والفرح.

احتجّ زميله على شرحه القوانين شرحاً مفتقراً إلى الانسجام والحجج المناسبة فحاوره طويلاً حتّى امتلأ الفضاء بالحجج والبراهين، وخرج المتحاوران من حلبات الكلمات متفقين مقصداً وغاية.

قرأ الشاعر قصيدته الجديدة على صاحبه فأثارت أسئلة جديدة، فتحت بها أبواب الحوار من جديد غير أنهما اتفقا على تأجيل الدخول في تلك الأبواب قليلاً كي ينعما معاً بصور الشعر وموسيقاه وملاعب مروجه.

مارد الحب

تخرج عبد الودود في قسم التاريخ بالجامعة، ونجح في مسابقة وزارة التربية فأصبح مدرساً من مدرسي الحلقة الثانوية. فرح ذووه فرحاً غامراً، وسيطر موضوع تعيين المدرس الجديد على أحاديثهم مع الأقرباء والأصدقاء، فذهبت تلك الأحاديث مذاهب شتى، غير أن ما لم يخطر ببال أحد من أصحابها جاء مفاجئاً عندما أعلن عن تعيينه في محافظة الحسكة البعيدة.

لم تكن حافلات المواصلات في تلك الأيام مريحة وسريعة، ولم تكن شبكة الطرق العامة قد عرفت توسيعها وتشعيبها اللذين سهلا مصاعب السفر فيما بعد.

حزم المدرس الجديد أمتعته مرتباً شؤون سفره من مدينته الغافية على ضفتي نهرها الشادي بنواعيره الساحرة. قال له المجربون إن السفر ليس لعبة وعليه أن يتحمل مشقات الإقامة بعيداً عن الأسرة والأهل، وهمس في أذنه المقربون يشجعونه على الخطوبة قبل

السفر، فالبنات جميلات وكثيرات لدى العائلات القريبة وما عليه سوى الإيماء برأسه حتّى يخرج له مارد الحبّ حاملاً خاتمين مناسبين وصارخاً صرخته المشهورة «لبيك يا عريس لبيك».

في الطريق البعيدة راح يسرح ناظريه في السهول الواسعة، فيتراءى له مارد الحبّ صارخاً من بعيد مثيراً جلبة من الغبار. لم ترق له الصورة فصار يهرب منها كلما تشكلت على مدارج السفر.

في مجتمعه الجديد أصبح محط اهتمام الكثيرين، فممثلو أو نشطاء الأحزاب السياسية يتسابقون إليه، كلّ يريد إفهامه بأن الكلمة الأولى في هذا المجتمع له وحده ومخالفته تسبب لصاحبها المتاعب وتصيبه بالويل والثبور، أما ممثلو العائلات المتنفذة والمرموقة فيشرحون له كل على طريقته، أهمية ولائه وركونه لمشيئة هذه العائلة أو تلك. حدثه كثيرون عن المجتمع الجديد الذي وفد إليه، وأطالوا شروحهم عن الولاء والنفوذ لكسب متعاطف جديد، غير أنه كان يشرد من حين إلى حين عندما يتراءى له مارد الحب هارجاً مارجاً بصرخته التي لا يملّ منها منغّماً حروفها بألحان متنوعة. أحسّ بعض محدثيه بشروده، فظنوه حالة من حالات التفكير الرصين بالموافقة على

ما يقولون، ولما طال الزمن ولم يبدِ المدرّس الجديد علامة من علامات الموافقة مع أحد من الراغبين في إقناعه وجذبه إلى مواقفهم انفضوا عنه فصار يمضي سهراته وحيداً بعد تسكع طويل في الشوارع.

ألف صاحبنا إطلالة مارد الحبّ مترائياً له من حين إلى حين، فصار يعاتبه إذا تأخر، أو تراءى هادئاً وقوراً متخلياً عن هرجه ومرجه وصراخه، لقد غدت جلبته مصدر ألفة في البعاد والعزلة تبعث في غرفته الباردة دفئاً حميماً يرجحه صخبها المنغم بألحان المارد الذي يشجع عريس المستقبل على الرقص. وفي ليلة ماطرة همّ أحد زملائه المدرسين بزيارته فرآه خلف زجاج النافذة يرقص حاملاً في يديه إلى الأعلى بعض كتب التاريخ ودفاتره، وهاتفاً بصوت ذي بحّة: «من بيروت.. جبنا جهازنا وحنة..». تراجع الزائر مؤجلاً ما عزم عليه، متأملاً في حالة زميله التي تدعو إلى القلق.

كاشف المدير الذي علم بالقصة صاحبنا، مستفسراً عن رقصة المدرّس الحالم بالحنّة الذي اكتشف حسن التخلص

بادعائـه تحـضير مـسرحية تـشارك في الأنـشطة الفنيـة القادمـة وتتطلب تدريبات على الرقص والغناء.

جـاء ادعـاؤه ملبيـاً رغبـة المـدير في تعزيـز النـشاط المسرحي وملامـساً دوافعـه الخاصـة إلى الخـروج مـن عزلتـه الاجتماعيـة، فوجد كل منهما الفرصة سانحة لتنفيذ عمل مسرحي مهم.

بعـد انتهـاء الفـصل الـدراسي الأول عـاد صـاحبنا في العطلـة الانتصافية إلى مدينته، فتحلق حوله الأقرباء والأصدقاء يستزيدونه الحـديث عـن سـفره، فـيقصّ علـيهم بالتفـصيل الممـل وهـم في إصغائهم فرحون، أما حديثه عن مسرحيته «مارد الحب»، فيترافق بتحريكه يديه ورأسه، وبتلوينه صوته بحسب الحال والمقام، مما يثير إعجابهم الكبير الذي تظهر علاماته على وجوه السامعين وهـم يرفعون أصواتهم بكلمات مثل: «طيب، يا سلام..».

مرت سنوات طويلة نقلت عرباتها مدرّس التاريخ بين سلالم الوظيفة، فغدا صاحب مرتبة مرموقة في العلـم والمجتمع، غـير أن حديثه عن تلك المسرحية القديمة ظلّ أسيراً لدى قلبه يبعث في نفوس سامعيه بهجة خاصة.

وفاء صديقة

عاد غريب إلى مدينته الغافية على ضفتي نهرها بعد سفره الطويل الذي دام نحو عشرين عاماً في المهاجر البعيدة. تجول غريب سيراً على الأقدام في شوارع المدينة التي عرفت طفولته ونشأته، شعر أن جدران البيوت والعمارات تبتسم له بحجارتها السمراء، فراح يرد التحية بأحسن منها، مبتسماً مردداً مقاطع من أغنيات قديمة يحفظها في صدره، وقد عوضه ذلك عن شعوره بكثرة العابرين من أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه، فما أكثر من ولد وكبر في سنوات غيابه.

من حين إلى حين كان يصادف صديقاً قديماً فيقف أحدهما مذكراً الآخر بنفسه أو مسائلاً متأكداً بعد علامات الشيب والتقدم في السن، حتى إذا تأكد الصديقان القديمان من تطابق الصور والأسماء، قام كل منهما بحركات عاطفية تحول

مـــشهدهما في ناصـــية الـــشارع إلى طقـــس احتفـــالي يثـــير فضول السابلة.

لم تمضِ أيام قليلة على عودته حتى نجح في إحياء الكثير من صداقاته القديمة، غير أنه راح يشعر بالمسافات البعيدة تمتد محاولة إبعاد أولئك الأصدقاء القدامى الجدد عنه، فكأن سنوات الغربة قد زرعت أشواكها بين المحبين، الذين تباعدوا عن بساط أيامهم المشتركة.

لغة جديدة تسربت إلى لغته، فغدا يستخدم في حديثه وحواره مفردات وعبارات غير مألوفة في بيئته الأصلية، ولعل ذلك صار يرفع الحواجز في حواره مع الأصدقاء القدامى.

في غمرة تنقلاته بين البشر والتواريخ والأمكنة، توقف طويلاً مع صديقته القديمة التي كان يدعي في أيام نشأته وطفولته أنها تتحرش به عندما يمر بالقرب منها، توقف من جديد مع أنات صوتها، وظن دموعها تحرشاً به يشبه تحرشها القديم في ماضي الطفولة البعيد.

حدّث أصدقاءه عن كل ذلك ناسجاً الأخبار والأحاديث من مخيلة تهزها أرجوحة أشواق ومودات فياضة بالمعاني، أخبرهم عن قصة تحرش صديقته القديمة به، وادعى أنها بكت طويلاً تعاتبه على سنوات السفر والغياب، مما جعلهم يحارون في تفسير ما يرويه لهم.

ولما طال الحوار والشرح، استطاع أن يقنعهم بأن الناعورة قد ارتاحت قليلاً بعد عتابه الطويل، وعادت تعابثه برذاذها فرحة بلقائه، مستعيدة ذكريات صداقتها القديمة.

اقتربت أيام الرحيل، وعاد غريب أدراجه إلى المهاجر البعيدة، من نافذة الطائرة تراءت الغيوم العالية متراكضة ودائرة كأنها ترسم دوائر تشبه صديقته القديمة الناعورة، غير أنه شعر بحزن يكوي فؤاده لأن تلك الصديقة تدور من دون أنات صوتها، ورذاذها الأثير لدى قلبه.

فهرس

الصفحة

صدر للمؤلف

راتب سكر

- في الشعر:

- وجهك وضاح، ثغرك باسم، ١٩٨٤
- أبي ينحت الحجر ١٩٩٤
- في حضرة العاصي ١٩٩٦
- ملاءة الحرير ٢٠٠٠
- أقرب من الأصدقاء أبعد من الخصوم ٢٠٠٥
- سلافة الروح ٢٠١٢

- في الدراسات الأدبية والترجمة:

- حدود العصور، حدود الثقافات ١٩٩٧
- أسماء على ضفاف العاصي ٢٠٠٠
- مدخل إلى الأدب العربي في العصر العثماني. ٢٠٠٢
- عبد الوهاب الشيخ خليل .. شاعر وإنسان من ربوع العاصي ٢٠١١.
- بحوث ودراسات في الأدب المقارن، منجمة في كتب مشتركة ومجلات جامعية.

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة